معنى العبادة في القرآن الكريم
بين التأله والخضوع

د. عبد الحليم أحمدي

المقدمة

الحمد لله ربي العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد،

فإن العبادة هي جوهر التوحيد، والتوحيد هو جوهر الإسلام كله.

والبحث الذي بين يدي القارىء لا يتناول العبادة بالمعنى الفقهي الذي يقصرها على الشعائر، ويدرسها إزاء المعاملات لأغراض التبويب والتصنيف، كما لا يتناول المفهوم الشامل لموضوعات العبادة التي لا تقتصر على الشعائر، بل يشمل الحياة كلها، ويكون مكانها الكون كله؛ فقد أشبع هذان الجانبان من الموضوع بحثاً ودراسةً، وإنما السؤال الذي نشأ عنه هذا البحث بالتحديد هو:

ما هي العبادة التي أوجبها الشارع على العباد؛ حتى جعل توجيهها لغير الله تعالى شركاً لا يغتفر؟ وقال (إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء). ٤٨ النساء

هل يقتصر هذا المعنى على الشعائر التي تناولتها كتب الفقه؟ أم تشمل صور الحياة كلها؟

ولم أجد في الأبحاث والكتب الموجودة ما يتناول هذا المعنى بالتفصيل، وإن كنت قد رأيت بعض الشذرات عن تحديد مفهوم العبادة في بطون كتب التفسير التي اختلفت في تحديد هذا المعنى، بين مجرد الخضوع، والخضوع مع التعظيم، أو الخضوع مع الحب .. الخ كما سنرى. فصنفت هذه الآراء وقسّمتها.

وقد قرأت في هذا المعنى معظم التفاسير المشهورة، إلا أنني لم أذكر بالاسم إلا أشهرها؛ لأن باقي التفاسير التي لم أذكرها تتفق ـ غالباً فيما قرأت ـ مع أحد المعاني التي وردت في هذا التصنيف، ثم أخذت بذكر كل صنف مع أدلته وحججه من مراجعه الأصلية، مدعماً كل رأي بأدلةٍ من عندي قبل أن أقوم بمناقشته، مخالفاً أو مؤيدًا له.

كما تناولت الدراسات التي صدرت حديثاً حول هذه القضية مع مناقشتها. وأنهيت البحث بما رأيته صواباً في الموضوع.

ولا أراني بحاجة إلى التأكيد: بأن مخالفتي لرأي أو علم من الأعلام، أو ترجيحي لرأي غيره لا يعني أكثر من حبي لحرية البحث العلمي؛ وإن الباحث ـ إذا رأى عدم ميله إلى رأي معين، عليه أن يذكر ذلك أياًّ كان المقام العلمي لصاحب الرأي، لأنّ العصمة لله وحده.

والله أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه.

معنى العبادة في اللغة:

وردت مادة ع، ب، د، في اللغة بمعان مختلفة، فقد وردت كلمة (العبد) بمعنى الإنسان مطلقاً، حرًّا كان أو رقيقاً(١)، كما وردت بمعنى المملوك فقط.(٢)
ومن ذلك أعبدنى فلانٌ فلاناً: أي ملّكني إيّاه، وعبَّده واعتبده أي اتَّخذه عبداً(٣)
ومن ذلك ما ورد في التنزيل على لسان موسى عليه السلام لفرعون: (وتلك نعمة تمنها على أن عبَّدت بنى إسرائيل).(٤)
ومعنى ذلك اتخذتهم عبيداً لك.

أما الفرق ما بين العبد بمعنى المملوك أو الرقيق، والعبد بمعنى الإنسان مطلقاً، أو عباد الله، فيبينه الأزهري إذ يقول(٥): اجتمع العامة على تفرقة ما بين عباد الله والمماليك، فقالوا: هذا عبد من عباد الله، وهؤلاء عبيد مماليك، ولا يقال: عَبَد يعبُد عبادةً إلا لمن يعبُد الله، ومن عبد من دونه إلهاً فهو من الخاسرين. قال: وأما عبدٌ خدم مولاه فلا يقال: عبَده، وتأتي «العَبَدة» بمعنى القوة والصَّلابة، يقال: هذا ثوب له عَبَدة، إذا كان صفيقا قويا، ومنه علقمه بن عَبَدة، بفتح الباء.

ومن هذا القياس: العَبَد مثل الأنف والحميّة، يقال: هو يَعبَدُ لهذا الأمر، وفُسر قوله تعالى «قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين» أي أول من غضب عن هذا وأنف من قوله»(٦)

ووردت بمعنى الحبْس، فيقال: ما عبدك عنى؟ أي ماحبسك(٧)
ووردت بالإضافة إلى ذلك بمعنى التأله، فيقال: عبدالله تأله له.(٨)

---

(١) ابن منظور: لسان العرب جـ٢ صفحة ٦٦٤
(٢) المصدر السابقة والصفحة.
(٣) ترتيب القاموس المحيط جـ٣ صفحة ١٣٧
(٤) سورة الشعراء آية ٢٢
(٥) لسان العرب جـ٢ صفحة ٦٦٤، ومعجم مقاييس اللغة جـ٤ ص ٣٩٥
(٦) معجم مقاييس اللغة ٤/٢٠٥
(٧) لسان العرب جـ٢ صفحة ٦٦٦ وهو منسوب الى ابن الأعراب.
(٨) المصدر السابق جـ٣ صفحة ٢٧٢

التعبد: التنسك(١)، والعبادة: الطاعة(٢)

قال الزّجاج في قوله تعالى (إياك نعبد) أي: نطيع الطاعة التي يخضع معها وقيل: إياك نوحّد(٣)

العبادة والطاعة والعبدوية:

وقال أبو البقاء(٤) «الطاعة هي الموافقة للأمر، أعم من العبادة؛ لأن العبادة غلب استعمالها في تعظيم الله غاية التعظيم.
والطاعة تستعمل لموافقة أمر الله وأمر غيره، والعبادة تعظيم يقصد به النفع بعد الموت.

وقال(٥): «والخدمة تعظيم يقصد به النفع قبل الموت»
والعبودية إظهار التذلّل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلّل.
والطاعة فعل المأمورات ولو ندباً، وترك المنهيات، ولو كراهةً، فقضاء الدَّين والإنفاق على الزوجة والمحارم ونحو ذلك طاعة لِلّه، وليس بعباده، وتجوز الطاعة لغير الله في غير المعصية، ولا تجوز العبادة لغير الله تعالى..

والتاء في الطاعة والعبادة ليست للمرة، بل للدَّلالة على الكثرة، أو لنقل الصفة إلى الاسمية، وقال(٦): «والعبودية أقوى من العبادة؛ لأنها الرضاء بما يفعل الرب. والعبادة: فعل مايرضي الرب.

وقال ابن الأنباري: اعبدوا ربَّكم: أطيعوا ربَّكم. وقال صاحب لسان العرب(٧): وأصل العبودية الخضوع والتذلّل

وقد حقق المودودي، رحمه الله، مادة (ع، ب، د) في اللغة، فذكر منها خمسة معانٍ(٨) هي ما ذكرناه. أي: العبد المملوك، خلاف الحر/ والعبادة: الطاعة مع

---

(١) (٢)، (٣) لسان العرب ٦٦٤.
(٤) الكليات جـ٣ ص١٥٥
(٥) المصدر السابق ص ١٥٦
(٦) المصدر السابق ص ٢٧١.
(٧) جـ٢ ص ٦٦٤
(٨) المصطلحات الاربعة ٩٦ - ٩٧

الخضوع/ وعبده: تأله له/ وعبد به: لزمه فلم يفارقه/ وما عبدك عني: ما حبسك عني. ثم ذكر: أن القرآن الكريم استعمل الكلمة في الغالب في المعاني الثلاثة الأولى على حدة(١)، أي: بمعنى المملوك خلاف الحر، وبمعنى الطاعة مع الخضوع، وبمعنى التأله والتنسك، أو مجتمعة.(٢)

فقد وردت هذه المادة بالمعنيين: الأول والثاني في مثل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(٣)

كما وردت بمعنى العبودية والإطاعة في مثل قوله تعالى ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾(٤)

ووردت بمعنى التأله في مثل قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾(٥)

ووردت بمعنى العبدية، والإطاعة، والتأله، مجتمعةً في مثل قوله تعالى ﴿لن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا)(٦)

وسوف نعود إلى رأي المودودي رحمة الله عند شرح معنى العبادة في اصطلاح الشرع.(٧)

وإذا دقَّقنا النظر في المعاني التي وردت بها مادة (عبد) فإننا نستطيع أن نجد فيها

---

(١) المصطلحات الاربعة ٩٨ ـ ١٠٦

(٢) المصطلحات الاربعة ١٠٧ وما بعدها

(٣) سورة الشعراء آية ٢٢

(٤) سورة البقرة آية ١٧٢

(٥) سورة يس آية ٦٠

(٦) سورة سبأ آية ٤٠ ـ ٤١

(٧) سورة النساء آية ١٧٢

(٨) انظر المودودي: المصطلحات الاربعة من ٩٨ ـ ١٠٩ باختصار

معنىً واحداً مشتركاً، تدور المعاني الأخرى حوله، حتى يحق لنا القول: إن المادة وضعت له.

وهذا المعنى هو الخضوع؛ ذلك لأن الذي يخضع لغيره لا بد أن يطيعه، فيدخل معنى الطاعة.

والتوحيد هو إفراد الله بالطاعة والخضوع، أي أن يخضع الإنسان له وحده، وتكون كل أنواع الخضوع الأخرى جزاً أو تابعاً لهذا الخضوع الأساسي، والعبدية أو المملوكية مظهر من مظاهر الخضوع، كما أن التألة ناشيء عن منتهى الخضوع، وكذلك الحبس، ما عبدك عني؟ ما حبسك عني؟

وما يرجح إرجاع معاني العبادة إلى معنى واحد هو الخضوع؛ واعتبار سائر المعاني تابعةً له، ما يقوله صاحب لسان العرب(١): «وأصل العبودية الخضوع والتذلل»، و «معنى العبادة في اللغة:الطاعة مع الخضوع، ومنه طريق معبد إذا كان مذللاً بكثرة الوطء»(٢)
وقوله: «كل من دان لملك فهو عابد له»(٣)

ويقول الطبري: «إن العرب يسمون من دان لملك من الملوك إنهم عبدوه» وكل هذا يدل على أن العبادة تعني أصلاً الخضوع والطاعة، ثم تأتي بالمعاني الأخرى على سبيل التلازم أو المجاز.

أما كلمة الخضوع فتأتي بمعنى الذل واللين(٤)
وخضع بمعنى ذلَّ
ورجل أخضع وامرأة خضعاء: وهما الراضيان بالذُّل
وفي الحديث: أنه نهى أن يخضع الرجل لغير امرأته، أي يلين لها في القول بما يطمعها منه
وخضع الإنسان خضعاً: أمال رأسه إلى الأرض ودنا منها...

والخضوع في جملته: ضد الاستكبار والاستنكاف، فمن كان في قلبه شيء من

---

(١) جـ٢ ص ٦٦٤
(٢) جـ٢ ص ٦٦٤
(٣) جـ٢ ص ٦٦٥
(٤) انظر: لسان العرب ص ٨٥٠ ـ ٥١

الاستكبار والاستنكاف إزاء المعبود لا يقال: إنه يعبده، إذ العبادة ـ كما قلنا ـ تعني الخضوع والذّل، وهما ضد العزّ والاستكبار.

العبادة والحب لغة:

يرى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله: أن العبادة هي أعلى مراتب الحب إذ يقول(١) . . «فإن آخر مراتب الحب، هو التتيم، وأوله العلاقة، لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة، لانصباب القلب إليه، ثم الغرام، وهو: الحب الملازم للقلب، ثم العشق، وآخرها التتيم، يقال: تيم الله، أي عبدالله، فالمتيم: المعبّد لمحبوبه».

وسواء أكان هذا المعنى حقيقةً أم مجازاً (وابن تيميه لا يعترف بالمجاز كما هو معروف عنه)(٢) فإنه يُؤّدى إلى أن يكون الحب داخلاً في المعنى اللغوي لكلمة العبادة، إذ الأعلى ـ وهو العبادة ـ يتضمن الأدنى ـ وهو الحب، فكما لا يمكن تصور الحب دون تصور «العلاقة بين الطرفين، فكذلك لا يمكن تصور العبادة دون تصور الحب بينهما».

ويرى تلميذه ابن القيم رحمه الله: أن العبادة اسم من أسماء المحبة، فيذكر خمسين اسماً للمحبة، بينها: التعبد(٣)، المحبة، والعلاقة، والهوى، والصبوة، والصبابة، والشغف، والمقة، والوجد، والكلف، والتتيم، والعشق، والجوى، والدنف، والشجو، والشوق، والخلابة، والبلابل، والتباريح، والدم، والغمرات، والوهل، والشجن، واللاعج، والاكتئاب، والوصب، والحزن، والكمد، واللذع، والحرق، والسهد، والأرق، واللهف، والحنين، والاستكانة، والتبالة، واللوعة، والفتون، والجنون، واللمم، والخبل، والرسيس، والداء المخامر، والود، والخلة، والحلم، والغرام، والهيام، والتدليه، والوله، والتعبد(*).

---

(١) العبودية ص٣٨

(٢) راجع كتابه: الإيمان ص٨٤ وما بعدها

(٣) ابن القيم: روضة المحبين ص١٦

(*) يلاحظ أن هناك فرقاً في الدرجات التي يذكرها ابن القيم والتي يذكرها ابن تيمية منها: يرى ابن تيمية كما ذكرنا أن التتيم هو المرحلة النهائية القصوى في حين يجعله ابن القيم مجرد مرحلة في سلسلة المراحل ويذكر ابن تيمية العشق قبل التتيم كمرحلة ادنى من التتيم فيما نجد العكس عند ابن القيم

ثم يعقب على ذلك بقوله(١) «وقد ذكر له أسماء غير هذه، وليست من أسمائه، وإنما هي من موجباته وأحكامه، فتركنا ذكرها»

ويقول(٢) «لما كان الفهم لهذا المسمى أشد، وهو بقلوبهم أعلق، كانت أسماؤه لديهم أكثر. وهذا عادتهم في كل ما اشتد الفهم له، أو كثر خطوره على قلوبهم. تعظيماً له، أو اهتماماً به، أو محبةً له.

فالأول: كالأسد والسيف.
والثاني: كالداهية.
والثالث: كالخمر.

وقد اجتمعت هذه المعاني الثلاثة في الحب، فوضعوا له قريباً من ستين اسماً»

وقد ذكر منها الخمسين كما رأينا، وكلها ينطبق على مسمى واحد هو المحبة. كما ينطبق أسماء كثيرة على السيف أو الخمر مثلا.

والظاهر أن المحبة هي تعلق القلب بالمحبوب، فإذا ما بلغت أقصاها فقد الإنسان السيطرة على نفسه، حتى يصبح مملوكاً خاضعاً لمحبوبه أو معشوقه. والعبادة تعني الخضوع في اللغة كما ذكرنا آنفا.

ولذلك من بلغت به المحبة أقصاها يقال له: تيم، أي عبد، ومعناه أن محبته أدّت به إلى الخضوع لمحبوبه.

والتيم يعني أصلاً ذهاب العقل من الهوى، ومنه رجل متيم أي ذهب عقله من الهوى(٣).

فيتضح الفرق بين معنى العبادة ومعنى المحبة، فقد يجتمعان كما هو في حال المتيم الذي بلغ منتهى الخضوع والطاعة عن شدة أو منتهى المحبة، وقد يفترقان وذلك عندما تكون العبادة أي الخضوع عن خوف، أو تكون المحبة بلا خضوع كما سنعرف فيها بعد.

وإذا كان يطلق على من هام حباً بحبيبه حتى فقد السيطرة على نفسه: أنه

---

(١) روضة المحبين ص١٦

(٢) روضة المحبين ص١٦

(٣) لسان العرب جـ١ ص٣٤١

يعبده، فإن ذلك الإطلاق يكون من قبيل المجاز، وليس أن العبادة تعني في أصل الوضع اللغوي منتهى المحبة.

والخلاصة: أن العبادة أو مادة عبد أتت بمعانٍ مختلفة في اللغة يمكن أن يجمعها معنى واحد هو الخضوع، أما ما عدا الخضوع من المعانى كالحب مثلاً فإنها لا تدخل في معناها اللغوي إلا من قبيل المجاز.

معنى العبادة في اصطلاح الشرع:

اتفق العلماء على أن المعنى اللغوي للعبادة: وهو الخضوع، أو الطاعة مع التذلل، عنصرٌ اساسي أصيل في المعنى الشرعي، ثم اختلفوا بعد ذلك.

فمنهم من اكتفى بالخضوع والطاعة، أو الطاعة مع التذلل.

ومنهم: من نظر إليه من حيث المعبود الذي يتم الخضوع له، فقالوا: إنه الخضوع لله فقط، ولا تطلق على الخضوع لغير الله تعالى.

ومنهم: من نظر إليه من حيث الدوافع التي تدفع العابد إلى الخضوع والطاعة وهؤلاء انقسموا إلى فريقين.

ففريق رأى: أن العبادة هي الخضوع مع التعظيم، حتى إذا كان الطاعة والخضوع غير مصحوب بالتعظيم بل بالاحتقار أو اللعنة لم تكن عبادة كطاعة الإنسان وخضوعه للشيطان مثلاً.

بينما يرى فريق آخر: أن العبادة هي الخضوع أو منتهى الخضوع، مع منتهى الحب، حتى إذا لم يكن الخضوع عن حب بل عن كره لم يكن عبادة.

ومنهم من نظر إليه من حيث المعبود ودوافع العابد معاً، فقال: إنه خضوع مع التعظيم، ولكن ليس تعظيما عادياً، وإنما تعظيم لا يدرك العابد كنهه، بما يوحي كلامهم بأنه الخضوع مع التعظيم والاعتقاد بالألوهية.

وفيما يلي نبين رأي كل فريق مع التعقيب عليه ومناقشته.

١ ـ العبادة هي الطّاعة مع التذلُّل:

يرى الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ أن العبادة هي الطاعة مع التذلّل، ويقول في

تفسير قوله تعالى ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾(١) يعنون: أنهم لهم مطيعون متذلّلون، يأتمرون لأوامرهم، ويدينون لهم(٢)».

ثم يضيف(٣) «والعرب تسمي كلّ من دان لملك عابداً له، ومن ذلك قيل لأهل الحيرة: العباد؛ لأنهم كانوا أهل طاعة لملوك العجم»

وبهذا نعرف أن الطبري ـ رحمه الله ـ يرى: أن طاعة قوم وخضوعهم لملك يسمى عبادة لهذا الملك، ثم يقول(٤) «العبودية عند جميع العرب أصلها الذلّة، وإنها تسمى الطريق المذلَّل الذي قد وطئته الأقدام وذلّلته السابلة معبداً»

ويقول(٥) في تفسير قوله تعالى في سورة الفاتحة: إياك نعبد «اللهم نخشع ونذل ونستكين، إقراراً لك يارب بالربوبية، لا لغيرك»

ويقول(٦) في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ . . ﴾(٧) أي اخضعوا له.

ويقول(٨) في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا(٩)﴾ . . **وذلوا لله بالطاعة، واخضعوا له، وأفردوه بالربوبية، وأخلصوا له الخضوع والذلة.**

ثم يروى عن ابن عباس رضي الله عنه ما يخالف في ظاهره هذا الرأي؛ إذ يروى عنه تفسيره لقوله تعالى ﴿إياك نعبد﴾ إياك نوحد(١٠)! إلا أنه ـ أي الطبري ـ

---

(١) سورة المؤمنون آية ٤٧

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن

(٣) المصدر السابق ١/٥٣

(٤) المصدر السابق ١/٥٣

(٥) المصدر السابق ١/٥٣

(٦) المصدر السابق ١/٥٣

(٧) سورة البقرة آية ٢١

(٨) جامع البيان ٥/٥٠

(٩) سورة النساء آية ٣٦

(١٠) جامع البيان ١/٥٣

يضيف مؤكداً رأيه السابق، ومفسراً قول ابن عباس «إن معنى العبادة الخضوع لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة[1]».

وهو يقصد طبعاً هنا (عبادة الله) ثم يقول «والذي أراد ابن عباس إن شاء الله في تأويل قوله: اعبدوا ربك: وحدوه، أي: أفردوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه»[2]

وكما يرى الطبري: أن العبادة هي الطاعة مع الخضوع والتذلل، يرى صاحب البحر المحيط[3] ذلك فيقول «إن العبادة التذلّل، قاله الجمهور، وتعدّيه بالتّشديد مغاير لتعدّيه بالتخفيف، نحو عبدت الرجل: ذلّلته، وعبدت الله: ذلّلت له»

ويفسر البغوى - رحمه الله - قوله تعالى: ﴿**إيّاك نعبد فيقول**﴾[4]: أي إياك نوحد: نوحِّدك ونطيعك خاضعين.

ثم يقول[5] في تعريف العبادة: «والعبادة الطاعة مع التذلل والخضوع، وسمي العبد عبداً لذلته وانقياده، ويقال: طريق معبد، أي: مذلّل»

ويذكر الماوردي في العبادة ثلاثة معانٍ، ثم يختار معنى الخضوع فيقول[6]:
«وقوله: نعبد فيه ثلاثة تأويلات:
أحدها: أن العبادة الخضوع ولا يستحقها إلا الله تعالى؛ لأنها أعلى مراتب الخضوع، فلا يستحقها إلا المنعم بأعظم النعم: كالحياة والعقل، والسمع، والبصر.
والثاني: أن العبادة الطاعة.
والثالث: أنها التقرب بالطاعة، والأول أظهرها».

المناقشة:

والظاهر أن إطلاق مجرد الخضوع - حتى لو كان قسرياً - على العبادة تؤيده

---

[1] المصدر السابق
[2] المصدر السابق
[3] أثير الدين ابو عبدالله محمد بن يوسف: التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط ١/٢٣
[4] ابو محمد الحسين بن مسعود البغوي: معالم التنزيل، بهامش تفسير الخازن ١/٢٢
[5] المصدر السابق
[6] ابو الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري. كتاب النكت والعيون تفسير الماوردي جـ ١ ص ٥٨

آيات كثيرة في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١) . . .﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ (٢)﴾، ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ (٣)﴾، ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٤)﴾، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٥)﴾

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأٓصَالِ (٦)﴾

وهذا ما جعل بعض العلماء يقسمون العبادة إلى:

- العبادة القسرية: أي التي تتم دون اختيار أو إرادة من قبل المخلوق العابد، وبهذا المعنى تكون المخلوقات جميعها: ساكنها ومتحركها، جمادها ونباتها، أرضها وسماؤها، ومن وما فيها، يعبدون الله سبحانه وتعالى، ويسجدون له، فالمخلوقات كلهم عباد الله سبحانه وتعالى.

- والعبادة الاختيارية: أي العبادة التي تتم عن اختيار وإرادة من قبل المخلوق العابد، وبهذا المعنى لا تشمل العبادة كل الكائنات وإنما بعضها فقط. (٧)

وإذا ذهبنا إلى تعريف العبادة بمطلق الخضوع والتذلل، أو الطاعة مع الخضوع، كما تدل على ذلك ظاهر الآيات المذكورة.

فإنها تشمل ـ ضمن ما تشمل ـ هذا الخضوع القسرى.

---

(١) سورة النحل آية ٤٨

(٢) سورة النور آية ٤١

(٣) سورة الروم آية ٢٦

(٤) سورة الرحمن آية ٥ ـ ٦

(٥) سورة آل عمران آية ٨٣

(٦) سورة الرعد آية ١٥

(٧) انظر: ابن تيمية: دقائق التفسير جـ١ ص ١٨٨ في تفسير سورة الفاتحة: (اياك نعبد) وانظر أيضا: ابن تيمية: العبودية.

وعلى هذا فإن هذا الإطلاق العام، دون أي قيد من القيود، يدل في حد ذاته أنه ليس المعنى الشرعي الذي أمر الله تعالى بأن يكون خالصاً له تعالى، واعتبر توجيهه لغيره شركاً لا يغتفر، إذ أن الخضوع القسرى لا يأتي في إطار الأمر الشرعي الذي يتطلب اختياراً يترتب عليه ثواب أو عقاب، والظاهر أن الطبري رحمه الله قصد الخضوع عن اختيار، وليس عن قسر، ولكنه لم يقصد وضع تعريف جامع مانع للعبادة، كما ذكرنا في المقدمة، وإذا لم يكن الخضوع القسرى اللاإرادي هو العبادة التي نقصدها، أي المعنى الشرعي للعبادة، فهل إذا قيدنا الخضوع بالاختيار وقلنا: إن العبادة هي الخضوع الاختياري، أو الخضوع عن إرادة واختيار، نصل إلى المعنى الشرعي للعبادة(*)؟

يجيب عن ذلك تفسير المنار متسائلاً فيقول:(١) ماهي العبادة؟
يقولون: هي الطاعة مع غاية الخضوع .. إلا أن في هذه العبارة إجمالاً وتساهلاً، وإننا إذا تتبعنا آي القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لـ «عبد» وما يماثلها ويقاربها في المعنى ـ كخضع، وخنع، وأطاع، ذلّ ـ نجد أنه لا شيء من هذه الألفاظ يضاهي «عبد» ويحل محلها.. ثم يضيف(٢)

«يغلو العاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له غلواً كبيراً حتى يفني هواه في هواه، وتذوب إرادته في إرادته، ومع ذلك لايسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة.

«ويبالغ كثير من الناس في تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم مالا تراه من المتحنثين القانتين، دع سائر العابدين، ولم يكن العرب يسمون شيئاً من هذا الخضوع عبادة.
فما معنى العبادة إذن؟(**)

(*) حركة الانسان أو عمله اما أن يكون قسريا ولا اراديا ـ كنبضات قلبه أو كدورانه مع حركة الارض أو سقوطه من أعلى بأثر الجاذبية فهذا كله لا دخل لارادة الانسان فيها واما أن يكون اراديا فيقسم الى قسمين: اما أن يكون عن اكراه أو يكون عن رضا والظاهر أن مجرد الخضوع ـ مهما كان قسريا أو اراديا ـ لا يدخل في نطاق العبادة. في نظر المنار.

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار: جـ١ ص٥٦

(٢) المصدر السابق

(**) سوف نذكر رأي المنار في معنى العبادة في حينه ص٢٧ من البحث

مناقشة رأي المنار:

وبذلك يتضح: أن تفسير المنار يرى: أن مطلق الخضوع ـ حتى لو كان عن اختيار ـ لا يسمى عبادة مما حدا بالدكتور يوسف القرضاوي(١) أن يأخذ على المنار أن ذلك مخالف لما ورد في قوله تعالى عن فرعون ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ(٢)﴾ باعتبار أن الطبري يقول «والعرب تسمي كل من دان لملك عابداً له».

وقد رأينا عند تحليل المعنى اللغوي للعبادة: أنها تأتي بمعنى الخضوع حقيقةً، وعلى الرغم من ذلك فإنه يمكن أن يقال في تأييد رأي المنار: إن ما يذكره الطبري رحمه الله أن العرب كانوا يطلقون على خضوع قوم لملك كلمة العبادة، فإن ذلك لأن الملوك (ولا سيما ملوك العجم) في ذلك الوقت كانوا يدعون الألوهية، أو التفويض من قبل الله، كما كان الحال عند فرعون، وملوك الفرس، ككسرى وغيره.

وما يرجح هذا الرأي: أن العرب لم يطلقوا على مجرد خضوع إنسان لآخر (العبادة) كخضوع وتذلل وطاعة عبد لسيده، بل على خضوع قوم لملك من الملوك الذين كانوا يملكون في نظر الناس في الغالب قوة غيبية، ويطيعهم الناس، ويخضعون لأوامرهم، كأنها أوامر إلهية لا تناقش.

يؤيد ذلك أيضاً ما يقوله النيسابوري(٣) «. . . ويحتمل أن يقال: إنه كان يدعى الإلهية، فادعى للناس العبادة، وأن طاعتهم عبادة على الحقيقة».

ومما يؤيد ذلك أيضاً ما يقوله الزّجاجي(٤) «وأصل العبادة: الخضوع والتذلل من قولهم: طريق معبَّد إذا كان موطوءاً مذللاً، لكثرة السير فيه، ومنه اشتقاق العبد لخضوعه وذلته لمولاه.

والعبدة: الصلاية التي يسحق عليها الطيب، ثم يقول موضحاً(٥) «ليس كل من خضع لآخر قيل له: قد عبده، إلا أن يخضع له ويذل، موجبا له ذلك على نفسه، ومقرا له بأن مخالفة ذلك لا تسعه ديانة.

---

(١) العبادة في الإسلام: ص٣٠ الحاشية

(٢) سورة: المؤمنون آية ٤٧

(٣) تفسير النيسابوري على هامش الطبري ص١٨ جـ١٨

(٤) ابو القاسم عبدالرحمن بن اسحاق الزجاجي: اشتقاق أسماء الله، تحقيق د. عبدالحسن المبارك ص٣٠

(٥) المصدر السابق.

ثم يفرق بين يعبد ويتعبد، فيقول(١) «فأما إن خضع له وذلّ على غير هذه الطريقة فجائز أن يقال: فلان يتعبد بفلان، أي ينزل نفسه له منزلة العبد، يقال: عبدت الرجل وأعبدته: اذا استعبدته وأنزلته منزلة العبيد»

وعلى هذا فإن مجرد الخضوع أو الطاعة مع التذلل والخضوع دون أي قيد أو شرط لايعتبر عبادة.

وبهذا المعنى يمكن أن نفهم معنى العبادة الذي ورد في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه فنقول: إن طاعتهم لرهبانهم وأحبارهم لم تكن مجرد الخضوع فقط.

عن عدي بن حاتم قال: (أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: ياعدي، اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرَّموه.(٢)

فالملاحظ هنا: أن الطاعة كانت مصحوبة باعتقاد خاص، وهو تحريم ما أحل الله، وتحليل ماحرم الله، بناءً على كلام الأحبار والرهبان الذين جعلوا أوامرهم فوق أوامر الله تعالى. ومما يدل على ذلك رواية الطبري للحديث نفسه.

«روي عن مصعب بن سعد، عن عدى بن حاتم، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ سورة براءة، فلما قرأ: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، قلت: يارسول الله، أما انهم لم يكونوا يصلون لهم، قال: صدقت، ولكن كانوا يحلون لهم ماحرم الله فيستحلونه، ويحرمون ما أحل الله فيحرمونه.(٣)

ورواية أخرى للطبري أيضا

«سأل رجل حذيفة فقال: يا أبا عبدالله، أرأيت قوله: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا، كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه...(٤)

---

(١) المصدر السابق.

(٢) رواه الترمذي جـ٤ ص٣٤١ حديث ٥٠٩٣

(٣) رواه الطبري في جامع البيان جـ١٠ صفحة ٨٠ ـ ٨١.

(٤) المصدر السابق

وإلا فإن مجرد مخالفة أوامر الله ـ في العمل والتطبيق ـ واتباع غير الله ليس عبادة لهذا الغير، وإلا كانت كل معصية عبادة لغير الله، وشركاً لا يغتفر، إذ أنها ترك أوامر الله واتباع الشيطان.

وإنما كان اتباع الشيطان معصية، واتباع رجال الدين شركا لهذا الاعتقاد الذي ذكرناه. وسوف نعود إلى هذا الموضوع فيما بعد.(١)

الخضوع لله تعالى:

وإذا لم تكن العبادة هي مطلق الخضوع والطاعة دون أي قيد أو شرط كما رأينا فإن البعض قيد ذلك بالخضوع لله سبحانه وتعالى فقط، حتى لا يعتبر الخضوع والتذلل والطاعة لغير الله عبادة.

فيقول الخازن(٢): «والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، وسمى العبد عبداً لذلته وانقياده.

وقيل:

«العبادة غاية التذلل من العبد، ونهاية التعظيم للرَّب سبحانه وتعالى؛ لأنه العظيم المستحق للعبادة»

ثم يصرّح بذلك فيقول(٣): «ولا تستعمل العبادة إلا في الخضوع لله تعالى، لأنه مولى أعظم النعم، وهي إيجاد العبد من العدم إلى الوجود، ثم هداه إلى دينه، فكان العبد حقيقاً بالخضوع والتذلل له.

ويذكر الكشاف المعنى نفسه قائلاً(٤): ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى، ويذكر روح المعاني(٥) «إن العبادة هي أعلى مراتب الخضوع»

ثم يقول:(٦): وقيل لا تستعمل إلا في الخضوع له سبحانه وتعالى»

---

(١) انظر صفحة ٦٩ وما بعدها.

(٢) تفسير الخازن: سورة الفاتحة ص١٦

(٣) المصدر السابق

(٤) تفسير الكشاف: سورة الفاتحة

(٥) تفسير روح المعاني: سورة الفاتحة

(٦) المصدر السابق

ويضيف روح المعاني مجيباً عن اعتراض قد يرد، وهو إذا كانت العبادة هى الخضوع لله فقط، فلماذا نُسبت كلمة العبادة إلى غير الله تعالى في القرآن الكريم؟ فيقول(١):

«وما ورد نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ(٢). . .﴾ واردٌ على زعمهم، تعريضاً بهم ونداءً على غباوتهم.

ثم يذكر(٣) على لسان بعض المحققين درجات العبادة؛ إذ أن الإنسان إذا كان يعبد الله رغبةً في ثوابه أو رهبةً من عقابه فهي عبادة

وإذا كان يعبد الله تشرفاً بعبادته فهي عبودية

وإذا كان يعبد الله تعالى لاستحقاقه الذاتي من غير نظر إلى نفسه بوجه من الوجوه فتسمى العبودة

ثم يضيف(٤) وإليه الإشارة بقول المصلى: أصلي لله تعالى فإنه لو قال: أصلي لثوابه تعالى مثلاً أو للتشرف بعبادته فسدت صلاته

المناقشة:

من الواضح أن أصحاب هذا الرأي يرون: أن عملاً ما أو فعلاً ما إذا ما توجهنا به إلى الله تعالى، قد يختلف تسميته عما لو توجهنا به إلى غيره تعالى، فالخضوع إذا توجه به العبد إلى غير الله: أي خضع لغيره تعالى لا يسمى عبادة. بينما لو توجه به إليه تعالى، أي خضع له سبحانه، يسمى عبادة. وقضية اختلاف المعنى والاسم حسب الجهة التي ينسب إليها هذا المعنى أو الاسم واردة.

ونجد لها نظائر ـ مع بعض الاختلاف ـ في الأفعال الصادرة عن الله أو الصفات المنسوبة إليه تعالى، إذ لو نُسبت إلى الله تعالى يختلف معناها ومفهومها عما لو نسبت إلى الإنسان كما هو معروف في باب الأسماء والصفات في العقيدة، كما لو نسب صفة العلم إلى الله وإلى العبد، أو صفة الاستواء إلى الله وإلى العبد . . الخ

---

(١) المصدر السابق

(٢) سورة الانبياء آية ٩٨

(٣) تفسير روح المعاني: سورة الفاتحة

(٤) المصدر السابق

وهناك حديث الرسول ﷺ «**الدين النصيحة، لله ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم**(١)»

فالنصيحة للناس غير النصيحة لله مثلاً

وكذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾(٢)

وصلاتنا على رسول الله ﷺ يختلف معناها عن صلاة الله على رسوله ﷺ.

ولا يقال: إن الأفعال والصفات هنا صادرة عن الله تعالى، أو منسوبة إليه سبحانه، بينما الخضوع صادر عن العبد، فالقياس هنا مع الفارق لا يصح؛ ذلك لأن الأفعال الصادرة عن العبد للعبد أيضا، يختلف معناها في نظر العرف والناس، حسب من يقوم إليه الشخص بهذا العمل، ألا ترى أن إعطاء المال للفقير يعني التصدق عند الناس، وهو هديةٌ أو مجاملةٌ إذا كان للغنى، والطلب ـ بصيغة الأمر ـ إذا وجه لمن هو أدنى من الطالب يعتبر أمراً، فإذا ما وجه لمن هو أعلى منه يسمى رجاءً، وهو لله سبحانه وتعالى دعاءٌ.

وإذا كان الأمر كذلك فما المانع أن يكون الطواف وتقديم النذر والقرابين (وهي جميعاً مظاهر الخضوع) لغير الله تعالى مجرد طاعة، وتقديمها لله سبحانه وتعالى عبادة؟

---

(١) متفق عليه: انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري جـ١ ص١٢٨ وقد ورد الحديث بألفاظ أخرى أيضا/ وروى الثوري عن عبدالعزيز بن رفيع عن أبي شامة صاحب علي قال: قال الحواريون لعيسى عليه السلام: ياروح الله من الناصح لله قال الذي يقدم حق الله على حق الناس، والنصيحة لكتاب الله تعلمه وتعليمه واقامة حروفه في التلاوة.. وحفظ حدوده والعمل بما فيه.. والنصيحة لرسوله: تعظيمه ونصره حياً وميتاً واحياء سنته بتعلمها وتعليمها والاقتداء به والنصيحة لائمة المسلمين اعانتهم على ما حملوا القيام به وتنبيههم عند الغفلة.. انظر فتح الباري ١٢٨/١ وانظر النووي على صحيح مسلم جـ١ ٣٧ و ٣٩

(٢) سورة الاحزاب آية ٥٦: قال البخاري قال ابو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء وقال ابن عباس: يصلون يبركون.. وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا: صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار. انظر: تفسير ابن كثير جـ٣ ص٥٠٦

أما أن القرآن الكريم نفسه أطلق كلمة العبادة على ما يقومون به من الطاعات فإنه ـ أي القرآن الكريم نفسه ـ قد أطلق كلمة الإله أو الآلهة على الأصنام أيضاً(١)

فإذا قلنا: إنه أطلقها على الأصنام مجاراةً للخصم، وبناءً على ما يزعمون لا على أساس أنها آلهة حقيقةً، وفي نفس الأمر، فلم لا يحق لنا أن نقول: إنه سمى طاعاتهم عبادةً على هذا الأساس أيضا؟

الرَّد على هذا الرأي:

والحقيقة فإن العرب ـ عندما انحرفوا عن دين إسماعيل ـ اتخذوا أصناماً آلهة(٢) ثم بدأوا يتقربون إليها بالطاعات، والنذر، والقرابين، والطواف، والصلاة، طمعاً في نفعها، وتجنباً لعقابها، ويلجأون إليها في الأزمات، ويتمسحون بها عند الحروب أو الأسفار، معتقدين فيها الضر والعز والنفع، ويسمون تلك الطاعات بالعبادة، فأرسل الله محمداً ﷺ ينهى عن مثل هذه الطاعات والأعمال التي يقومون بها لأصنامهم، مسمياً أيضا إياها ـ أي تلك الطاعات والاعمال ـ العبادة

وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي تسمي طاعاتهم وقرباتهم لأصنامهم عبادة ينهى الله تعالى عنها بشدة، مؤكداً أن تكون الطاعة والعبادة خالصةً لله تعالى.

وإليك بعضها:

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ(٣) ﴾
﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا(٤) ﴾
﴿ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ(٥) ﴾
﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ(٦) ﴾

---

(١) ستأتي الايات التي تفيد ذلك بعد قليل
(٢) ستأتي كلمة الإله ومعناها في نهاية هذا البحث
(٣) سورة مريم آية ٤٢
(٤) سورة المائدة آية ٧٦
(٥) سورة يونس آية ١٠٤
(٦) سورة الانبياء آية ٦٦

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١) ﴾

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ (٢) ﴾

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ (٣) ﴾

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا (٤) ﴾

فإذا جاء من يقول ـ على الرغم من كل ذلك ـ إن طاعة العرب وتقربهم لأصنامهم ـ أو إن الطاعة والتقرب لغير الله ـ لا تسمى عبادة شرعاً حتى لو اعتقد العابد فيها الألوهية بما تحمله هذه الكلمة من معنى، وإن العبادة لا تطلق إلا على طاعة الله سبحانه وتعالى فقط والخضوع له.

نقول: إذا جاء من يقول ذلك، لابد أن يكون عنده دليل قوي من اللغة أو مِن الشرع.

أما اللغة: فقد رأينا(٥) ـ في معنى العبادة لغةً ـ أن العبادة هي الخضوع، واستعرضنا المعاني اللغوية لهذه الكلمة، فلم نجد فيها مانعاً من أن تطلق كلمة العبادة على خضوع الإنسان للأصنام مع الاعتقاد بألوهيتها

بل إن العرب ـ حسب لغتهم ـ كانوا يطلقون ـ كما رأينا ـ على من خضع من الأقوام للملوك، أنهم يعبدونهم(٦) كما سمى العرب طاعتهم لأصنامهم عبادة.

وأما شرعاً: فإن القرآن الكريم سمى ذلك عبادةً أيضا. بل إن الرسول ﷺ ـ كما رأينا سابقاً(٧) ـ سمى خضوع أهل الكتاب لرجال دينهم عبادة، للسبب الذي أسلفنا ذكره.

---

(١) سورة الانبياء آية ٦٧

(٢) سورة الانبياء آية ٩٨

(٣) سورة الشعراء آية ٧٠ ـ ٧١

(٤) سورة العنكبوت آية ١٧

(٥) انظر صفحة ٥ من البحث

(٦) انظر صفحة ٦ و ١٠

(٧) انظر صفحة ١٦ ـ ١٧

أما أن القرآن الكريم سمَّى ذلك عبادة مجاراةً لهم، أو بناءً على زعمهم، بينما يرى القرآن الكريم أنها ليست عبادة حقيقةً، فضعيف، إذ أنه ليس هناك ـ في القرآن الكريم ـ ما يدل على أنها ليست عبادة، وليست هناك آية على كثرة ماورد من الآيات في هذا الموضوع تنفى عن مثل هذه الطاعات والقربات صفة العبادة، وكل ما في القرآن الكريم أن توجيهها خطأ عظيم، إذ أنها يجب أن توجه وتؤدَّى للخالق سبحانه وتعالى، وليس للأصنام أو لغير الله تعالى.

وقد أطلق القرآن الكريم فعلاً في بعض الآيات كلمة «الإله أو الآلهة» على الأصنام مجاراةً للمشركين، أو بناء على زعمهم، وذلك في معرض الاستدلال والمناقشة.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً (١) . . . ﴾
﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢) ﴾
﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٣) ﴾
﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ (٤) ﴾
﴿فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون(٥)﴾
﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٦) ﴾

ليصل بهم في النهاية إلى أنها ليست آلهة، فنفت عشرات الآيات صفة الألوهية عنها، مؤكدةً أن الإله يضر وينفع، ويملك سلطانا . . الخ وهذه الأصنام لا تملك شيئا، ولا تضر، ولا تنفع.

---

(١) سورة الانعام آية ٧٤
(٢) سورة ق آية ٢٦
(٣) سورة الذاريات آية ٥١
(٤) سورة هود آية ١٠١
(٥) سورة الصافات آية ٢٨
(٦) سورة يس آية ٧٤

﴿. . . لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا . . .(١)﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ (٢)﴾

﴿. . . وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (٣) . . .﴾

أو أنه لو كانت هناك آلهة غير الله تعالى لفسدت السماوات والأرض ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا (٤) . . . الخ﴾

وأكثر ما اهتم به الإسلام - بل أكثر ما اهتم به الرسل والأنبياء عليهم السلام عبر الرسالات السماوية كلها - هو نفي الألوهية عن غير الله تعالى، وبالتالي عدم استحقاق الغير للعبادة، وبينما الأمر كذلك لم تشر آية واحدة إلى أن ما تقوم به هذه الأقوام المنحرفة عن دين الله ليس عبادة.

وبالإضافة إلى كل ذلك، فإن حديث عدى بن حاتم - رضي الله عنه - لم يترك لهذا الرأي مستمسكاً: في أن الإسلام أطلق كلمة العبادة على طاعة غير الله والخضوع له، مجاراةً لهذه الأقوام، أو بناء على زعمهم؛ إذ أن عدياً نفى صفة العبادة عما يقوم به أهل الكتاب إزاء رجال دينهم، بينما أكد الرسول ﷺ على أن ذلك يعتبر عبادة في اصطلاح الشرع(٥).

وعلى هذا لايصح أن نقول: إن العبادة هي الخضوع لله سبحانه وتعالى فقط، أما الخضوع لغيره فلا يعتبر عبادة في نظر الشارع.

فإذا كان الأمر كذلك فإن تعريف العبادة بأنها خضوع لله تعالى، تعريفٌ وإن كان مانعاً عن دخول غير العبادة فيه، فإنه غير جامع لكل أفراد العبادة المأمور بها والمنهى عنها.

---

(١) سورة الأنبياء آية ٩٩

(٢) سورة الحج آية ٧٣

(٣) سورة فاطر آية ١٣

(٤) سورة الانبياء آية ٢٢

(٥) انظر صفحة ١٧

الطاعة مع التعظيم:

يرى بعض العلماء: أن العبادة هي الطاعة مع التعظيم، مع الاختلاف بينهم في تفصيل كلمة «التعظيم» أو إجمالها، ولذلك سنناقش رأي كل منهم على حدة.

يرى الرازي(١) «أن العبادة عبارة عن الإتيان بالفعل المأمور به على سبيل التعظيم للأمر»

وهو يعلل(٢) عدم تكفير الفاسق الذي يطيع الشيطان على الرغم من تكفير أهل الكتاب الذين يطيعون أحبارهم ورهبانهم فيقول(٣): «إن الفاسق يلعن الشيطان ولا يعظمه، أما أولئك الأتباع فيعظمونهم».

وفي الحقيقة إذا كان تقيد الطاعة والخضوع بالخضوع لله تعالى يحول دون تعريف العبادة تعريفاً جامعاً؛ إذ لا يشمل عبادة المشركين لآلهتهم كما أشرنا آنفاً، فإن تقييد الطاعة بمجرد التعظيم إذا كان جامعاً لأفراد العبادة فإنه ليس مانعاً لدخول غيرها فيها؛ لأن العبد يطيع سيدّه، وقد يعظّمه، وإن الرعية تطيع الملك وغالباً تعظمه، ولا نقول: إن العبد يعبد سيده، أو إن الرعية تعبد الملك.

وتعليل الرازي في عدم تكفير الفاسق الذي يطيع الشيطان مع تكفير أهل الكتاب أو بعبارة أخرى عدم اعتبار طاعة الشيطان عبادة واعتبار طاعة الأحبار والرهبان عبادة، نقول: تعليل الرازي غير دقيق؛ إذ أن تكفيرهم واعتبار طاعتهم الأحبار والرهبان لم يأت من مجرد التعظيم فقط، وإنما لما ذكرنا سابقاً، ولما سنذكره(٤).

والرازي نفسه ينقل ـ قبيل هذا التعليل بقليل عن الربيع فيقول(٥): قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ فقال: إنهم ربما وجدوا في كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار والرهبان، فكانوا يأخذون بأقوالهم، وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى

---

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) جـ١ ص١٦ في تفسير الفاتحة

(٢) انظر مفاتيح الغيب: تفسير قوله تعالى؛ اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . . . الخ

(٣) المصدر السابق

(٤) انظر صفحة ١٦ و ١٧ و ٦٨ و ٦٩ من البحث

(٥) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) في تفسير قوله تعالى: ﴿اتخذو احبارهم ورهبانهم اربابا﴾

وعلى هذا فإن مجرد الطاعة مع مجرد التعظيم، أو تقييد الطاعة بالتعظيم، لا يعطينا معنى العبادة وتعريفها الدقيق.

تعظيم لا يدرك كنهه:

ولهذا ذهب بعض العلماء إلى إضافة معنى آخر إلى التعظيم وهو: تعظيم لا يعرف العابد منشأه.

فيقول تفسير المنار[1] «تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصراح: على أن العبادة ضرب من الخضوع، بالغ حد النهاية، ناشيء عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها»

ثم يضيف[2]: «واعتقاده بسلطة لا يدرك كنهها وماهيتها، وقصارى ما يعرفه منها: أنها محيطةٌ به، ولكنها فوق إدراكه.

وبذلك يكون صاحب المنار قد أضاف قيدين إلى الخضوع والطاعة في تعريف العبادة:

أولهما: أن يكون الخضوع ناشئاً عن استشعار القلب عظمة للمعبود، ولكن ليس مجرد العظمة، وإنما عظمة لا يعرف العابد منشأها، وبهذا يختلف عن الرازي في تقييد الطاعة بالتعظيم فقط.

وثانيهما: اعتقاد العابد بأن للمعبود سلطة، ليس مجرد سلطة، وإنما سلطة لا يدرك كنهها ولا ما هيتها.

ثم يضيف صاحب المنار موضحاً بعد أن يقدم معنى العبادة: ان مجرد الخضوع بالغاً ما بلغ لا يعتبر عبادة فيقول[3] «فمن ينتهي إلى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال: إنه عبده، وإن قبل موطىء أقدامه، ما دام سبب الذّل والخضوع معروفاً، وهو: الخوف من ظلمه المعهود، أو الرجاء بكرمه المحدود، اللهم إلا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية، أفيضت على الملوك من الملأ الأعلى، واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا...»

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص٥٦ - ٥٧

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق

وهذا الذي ذهب إليه المنار، ذهب اليه المراغي بعده؛ إذ يقول في تفسيره: (١) «العبادة خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود، اعتقاداً بأن له سلطاناً لا يدرك العقل حقيقته؛ لأنه أعلى من أن يحيط به فكره أو يرقى إليه إدراكه»

ثم يضيف (٢) كما يضيف المنار «فمن يتذلل لملك لا يقال: إنه عبده؛ لأن سبب التذلّل معروف، وهو: إما الخوف من جوره وظلمه، وإما رجاء كرمه وجوده».

ويقول الشيخ شلتوت (٣) «ومعنى العبادة خضوع لا يحد، لعظمة لا تحد، وهي تدل على أقصى غايات التذلل القلبي والحب النفسي، والفناء في جلال المعبود وجماله، فناء لا يدانيه فناء.

وقد يحب الإنسان ويتفانى في عشق محبوبه، ويخضع ويتفانى في الخضوع، ويستعذب العذاب في سبيل هذا المحبوب، ولكنه مهما بلغ لايسمى عمله عبادة، «فان العبادة هي ماكانت أثر الشعور بسلطان لا يحد، ولا يدرك كنهه، ولا تحصى نعمته».

وبهذا قد أضاف الشيخ شلتوت قيداً آخر وهو الحب النفسي، إلا أنه يرجع فيقول: إن الخضوع والحب لا يكفيان في تحقيق معنى العبادة، (٤) فلا بد من الشعور بسلطان المعبود، سلطاناً لا يحد ولايدرك كنهه..

المودودى ومصطلح العبادة:

وقبل أن نصل إلى معنى دقيق للعبادة يجدر بنا الإشارة إلى رأي المودودى رحمه الله في هذا الموضوع؛ إذ هو من القلائل الذين تناولوا هذا الموضوع بالتفصيل والإسهاب.

فهو في كتابه المصطلحات الأربعة، يخصِّص فصلاً عن معنى العبادة أو مصطلح العبادة، فيذكر معاني العبادة في اللغة، ثم يذكر ما ورد من هذه المعاني في القرآن الكريم فيقول: (٥) «وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم بعد هذا التحقيق اللغوي

---

(١) جـ١ ص٣٢

(٢) المصدر السابق

(٣) تفسير القرآن الكريم جـ١ ص٢٩ - ٣٠

(٤) وبذلك يختلف عن رأي ابن تيمية الذي سيأتي بعد قليل ص٣٢ ومابعدها

(٥) المصطلحات الاربعة ص٩٨ مع تصرف وقد أشرنا اليه في غير هذا الموضع (التعريف اللغوي)

رأينا: أن كلمة (العبادة) قد وردت فيه غالباً في المعانى الثلاثة: المملوك خلاف الحر، الطاعة مع الخضوع، التأله والتنسك».

ويخلص إلى القول فيقول: (١) «ومن الظاهر أنه ليست دعوة القرآن إلا أن تكون العبدية والإطاعة والتأله، كل أولئك خالصاً لوجه الله تعالى. ومن ثم إن حصر معنى كلمة (العبادة) في معنى بعينه، في الحقيقة، حصرٌ لدعوة القرآن في معان ضيقة»

وبهذا يعرف أنه ـ رحمه الله ـ يتحدث عن دعوة القرآن الكريم عامة إلى عبادة الله تعالى، وليس عن معنى جامع مانع للعبادة، فبينما يؤكد أن الطاعة والعبدية والتأله يجب أن تكون لله وحده دون غيره ـ لا يفرق بين من جعل الطاعة لغير الله ومن جعل التأله لغيره سبحانه، ويرى أن كلاً منهما يحاسبه الله تعالى يوم القيامة(٢)، دون أن يذكر أن الأول يحاسب بفسقه، والثاني بشركه.

إلا أنه في كتابه: مفاهيم إسلاميه حول الدين والدولة، يشرح معنى العبادة عامة فيقول(٣) «إن تصور العبادة في حقيقته تصور شامل، يكتمل بامتزاج تصورين ضمنيين هما:

١ ـ العبودية ٢ ـ التنسُّك

أما العبودية فمعناها: أن يقر الإنسان بالكبرياء والجبروت في قوة أعلى، ثم يطيعها، ويسلس لها قياده.

وأما التنسك فمعناه: أن يعتبر الإنسان في قوة أعلى: قداسةً وعصمةً وسمواً، ثم يطأطىء لها رأسه، ويؤدي لها الطقوس، وينذر لها النذور والقرابين.

فالأول هو تصور العبادة البدائي الأساسي.

والثاني، هو تصورها النهائي المكتمل.

فإذا كان الأول بمنزلة الأساس والقاعدة، كان الثاني بمنزلة البناء فوقه»

ومن الواضح أنه يشرح لنا ـ هنا ـ تصور العبادة عامة، وليس تصور العبادة

---

(١) المصطلحات الاربعة ص١١٥

(٢) راجع المصدر السابق

(٣) ص١٢

المأمور بها في الشرع، وهو إذ يشرح تصور العبادة عامة يرى أنها عبارة عن: الإقرار وإن صح قلنا: الإيمان بكبرياء وجبروت المعبود، ثم طاعته والخضوع له، وتقديم الطقوس والقرابين له.

ومن الواضح كذلك: أن هذا الرأي قريب من رأي تفسير المنار، والمراغي، والشيخ شلتوت.

الخضوع والفطرة:

وإذا كان العلماء والمفسرون - فيما رأينا - يرون أن الخضوع هو العنصر الأساسي في العبادة، ثم يكتفي به البعض، ويضيف البعض منهم إليه بعض القيود والشروط، كما أشرنا إلى ذلك آنفا. وكما شرحنا آراءهم بالتفصيل فيما مضى.

فإن الأستاذ المودودى - رحمه الله - يرى(1): أن الخضوع أمر فطري في الإنسان، وأن العبادة أو عاطفة العبادة كما يقول، أمر فطري؛ وأن الإنسان خلق خاشعاً، خاضعاً، ثم بدأ يبحث عمن يجب أن يخضع له، أو عن إله يستحق الخضوع، فإذا ما عثر عليه بدأ بالتنسك وأداء الشعائر له.

ومعنى ذلك - كما يفهم من ظاهر كلامه - أن عاطفة العبادة والخضوع هي المسئولة عن ظهور التدين ونشأته عند الإنسان(*).

منتهى الخضوع مع منتهى المحبة:

واذا كان من العلماء من يقيد الخضوع بالتعظيم للمعبود، أو التعظيم مع اعتقاد العابد أنه لا يعرف منشأ هذه العظمة، أو بأن له سلطانا لا يحد، فإن هناك من أضاف إلى الخضوع: المحبة، فالعبادة عندهم هي منتهى الخضوع، مع منتهى الحب، حتى إذا ما خلا قلب الشخص عن هذه المحبة لمعبوده، فإن عمله وخضوعه وطاعته لا تسمى عباده له.

---

(1) مفاهيم اسلامية حول الدين والدولة ص١٦ وما بعدها

(*) والرأي الاخر أن الانسان يؤمن بالله الخالق الذي لا يستطيع أن يفسر وجوده ولا وجود الكون في غيابه ثم تأتي عاطفة الخضوع - إذا سلمنا بها - كنوع من قيام الشكر ازاء اصل النعم وأعلاها: نعمة الخلق والوجود، وقد يلتبس عليه الامر في بعض الاحيان، فيعتقد في أشياء أخرى ضرًا ونفعاً، فاتخذه إلهاً ثم اتجه له بالعبادة وليس العكس، وبعبارة أخرى فإن الاعتقاد سبق العبادة

فقال ابن كثير(١): إن العبادة في الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف.

وقال ابن القيم(٢): «والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبد، أي: مذلل».

ثم يضيف في شرح هذا المعنى بما يدل على أنه يعرف العبادة مطلقة، وليس العبادة المأمور بها في الشرع فقط، فيقول(٣) «فمن أحببته ولم تكن خاضعا له لم تكن عابدا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدا له، حتى تكون محبا خاضعا.

بل يرى ابن القيم: أن أصل العبادة هي المحبة، كما سبق أن ذكرنا رأيه في المعنى اللغوي للعبادة.

ومحبة الله تعنى إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه.(٤)

وما ذهب إليه ابن كثير، وابن القيم، ذهب إليه الشّوكاني في تفسيره.(٥)

وما ذهب إليه هؤلاء جميعاً ذهب إليه قبلهم أستاذهم شيخ الإسلام ابن تيمية، فهو أولاً يبدأ بشرح العبادة المأمور بها، إذ يقول(٦): العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الامانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف .. الخ وأمثال ذلك من العبادة

ثم يضيف(٧) فالدين كله داخل في العبادة، ثم يقول(٨) مؤكداً التوافق بين الدين والعبادة «والدين يتضمن معنى الخضوع والذلّ. يقال: دنته فدان، أي أذللته

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٢٥ تفسير الفاتحة.

(٢) مدارج جـ١ ص٧٤

(٣) مدارج جـ١ ص٧٤

(٤) المصدر السابق

(٥) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ٢٢/١ وهو ينقل عن ابن كثير.

(٦) العبودية ص٣٨.

(٧) العبودية ص٣٨

(٨) العبودية ص٣٨

فذلَّ. ويقال: يدين الله، ويدين لله، أي: يعبد الله، ويطيعه، ويخضع له، فدين الله: عبادته، وطاعته، والخضوع له.

ثم يقول[1] «العبادة المأمور بها (في الشرع) تتضمن معنى الذّل، ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذّل لله تعالى، بغاية المحبة له».

وإلى هنا واضح جداً أن ابن تيمية ليس بصدد معنى العبادة بالإطلاق، وإنما يشرح معنى العبادة المأمور بها، أي العبادة التي أمر الله القيام بها.
ولو توقف عند هذا الحد لما قمنا بسرد رأيه هنا في هذا المقام؛ إذ أننا بصدد تعريف العبادة مطلقاً، أو تعريف مطلق العبادة الذي يجمع كل أفرادها، ويمنع غيرها من الدخول فيه

إلا أنه ـ رحمه الله ـ أضاف فقال[2] «ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه»

وهذا يدل: على أنه يعرِّف العبادة بمعناها المطلق العام؛ لأن معنى كلامه أن من خضع لإنسان مع حبِّه له منتهى الخضوع ومنتهى الحب يكون عابداً له.

المناقشة:

وقد استحسن كثير من العلماء رأي الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ منهم: تلاميذه ابن كثير، وابن القيم، وغيرهما؛ إذ فسَّروا العبادة على أنها منتهى المحبة مع منتهى الخضوع في الشرع، كما أشرنا سابقا، دون أن يذكروا: أن هذا المعنى هو معنى العبادة المأمور بها في الشرع، وليس معنى مطلق العبادة، أو بعبارة أخرى ليس تعريفاً جامعاً مانعاً للعبادة.

كما استحسن رأيه مع الإعجاب: د. يوسف القرضاوي، فبعد أن يستعرض آراء العلماء والمفسرين الآخرين لكلمة العبادة يقول[3]: أما شيخ الاسلام ابن تيمية فهو ينظر إلى العبادة نظرة أعمق وأوسع، فهو يحلل معناها إلى عناصره البسيطة،

---

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق

(٣) العبادة في الاسلام ص٣١

فيبرز إلى جوار المعنى الأصلي في اللغة * وهو: غاية الطاعة والخضوع ـ عنصراً جديداً له أهمية كبرى في الإسلام وفي كل الأديان، عنصراً لا تتحقق العبادة ـ كما أمر الله ـ إلا به، وذلك هو عنصر الحب، فبغير هذا العنصر العاطفي الوجداني لا توجد العبادة التي خلق الله لها الخلق، وبعث بها الرسل، وأنزل الكتب. ثم يذكر رأي شيخ الإسلام كما ورد في كتابه (العبودية) وكما أسلفنا ذكره.

وبينما الأمر كذلك، أي بينما يرى الإمام ابن تيمية وكثيرون من تلاميذه ـ من العلماء والمعجبين برأيه: أن العبادة هي منتهى الحب مع منتهى الخضوع، ينكر فريق آخر من العلماء إمكان قيام الحب بين الإنسان والخالق سبحانه وتعالى من أساسه، مؤولين الآيات التي وردت في هذا الشأن.

فإذا صح رأيهم فإنه يهدم رأي الإمام ابن تيمية من أساسه؛ إذ لا نستطيع عندئذ أن نعتبر الحب شرطاً، لا لصحة معنى العبادة وتحقيقها، ولا لكمالها.

وعلى هذا فسوف نناقش أولاً: إمكان قيام المحبة بين الإنسان والخالق تعالى، ثم نناقش إذا كانت المحبة شرطاً لتحقيق معنى العبادة، أم شرطا لكمالها فقط؟

الحب بين الإنسان وربه سبحانه وتعالى:

قبل أن نناقش هذه القضية ينبغي أن نعرف أولاً أنها تنحل إلى قضيتين، هما:

١ ـ حب الله لعباده:

حب الله سبحانه وتعالى لعباده: فقد وردت آيات كثيرة تثبت حب الله تعالى لبعض عباده، منها:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(١).

﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٢)

---

* يلاحظ أن المعنى الأصلي في اللغة للعبادة، هو الحب أو منتهى الحب، عند ابن تيمية فهو اذ يرى أن العبادة تعني منتهى المحبة لا يرى أن ذلك شيء اضافي على معناها اللغوي كما شرحنا ذلك في المعنى اللغوي للعبادة.

(١) سورة آل عمران آية ٣١.

(٢) سورة البقرة آية ١٩٥.

﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾(١)

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾(٢)

كما وردت آيات أخرى تنفي حب الله تعالى عن بعض عباده منها:

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾(٣)

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾(٤)

﴿ . . . وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾(٥)

والحب بهذا المعنى من الصفات الخبرية التي يؤولها كل من المعتزلة وكثير من الأشاعرة إلى الإرادة(٦)، اعتقاداً منهم بأن إثباتها يوهم التشبيه والتماثل.

إذ يقول القاضي عبدالجبار(٧): . . . إن حال المحب هو حال المريد، ولذلك متى أراد الشيء أحبه، ومتى أحبه أراده، ولو كان أحدهما غير الآخر لا متنع كونه محباً لما يريد، أو مريداً لما لا يحب، على بعض الوجوه. .

ويقول: . . . ولا خلاف بين المعتزلة: في أن الإرادة من صفات الفعل.(٨)

ويقول صاحب المنار(٩) عن هؤلاء بعد أن يتحدث عن حب المؤمن العارف ودرجاته «. . . وقد جهل علماء الألفاظ والتقاليد كنه هذا الحب فتأولوه، كما تأولوا غيره من صفات الله تعالى وشئونه الكمالية، توهماً منهم: أنها تعارض تنزهه عن

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢٢.

(٢) سورة آل عمران آية ٧٦.

(٣) سورة البقرة آية ٢٧٦.

(٤) سورة آل عمران آية ٣٢.

(٥) سورة البقرة آية ٢٠٥.

(٦) وعند المعتزل أن الارادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته لكن اختلفوا في وجوه وجودها ومحامل معانيها. انظر: الشهرستاني: الملل والنحل جـ١ ص٤٥.

(٧) المغنى في أبواب التوحيد والعدل جـ٦ ص٢٠

(٨) المصدر السابق جـ٦ ص٣

(٩) تفسير المنار جـ١٠ ص٢٣٤

مشابهة الناس في صفاتهم البشرية، فكان حظهم من معرفة ربهم وإلههم التعطيل، بشبهة التنزيه الذي هو معنى سلبي محض».

ويقول الرازي⁽¹⁾: ومن أصحابنا من زعم: أنه لا فرق بين المحبة والإرادة، واحتجوا عليه بأن أهل اللّغة يقيمون كل واحد من هذه الألفاظ مقام الآخر، فيقولون: أردته، وشئته، ورضيته، وأحببته. ولو قال: أردت، وما رضيت، أو بالعكس لعد متناقضاً، ومن أصحابنا من فرق بين الإرادة والمحبة والرضا.

ويقول صاحب شرح المواقف⁽²⁾ «. . . قيل: هي الإرادة، فمحبة الله لنا إرادته لكرامتنا ومثوبتنا على التأييد . . .»

أما السلف ـ فكما هو معروف ـ يثبتون كل الصفات التي وردت في الكتاب والسنة، مع التأكيد على عدم المماثلة والمشابهة.

ولا يزيدون عليها، ولا ينقصون منها بالتعطيل أو التأويل، محتجين في ذلك على الأشاعرة بأن ما ينطبق على الصفات التي يثبتونها كالعلم والقدرة . . الخ ينطبق على الصفات التي يؤولونها، فإذا كان لله علم بلا مشابهة بين علمه وعلم العبد ـ فإن له يداً بلا مشابهة وكيف، وكذلك فإنه يوصف ـ حقيقةً ـ بصفاته الفعلية، مع التأكيد على عدم المماثلة والمشابهة . . . الخ أيضا، فإذا جرى التأويل ينبغي أن يجرى في الكل، وإذا منع ينبغي أن يمنع في الكل؛ إذ لا باعث إلا توهم المشابهة، وهو منتف في الكل في جميع الحالات⁽³⁾

وعلى ذلك، فإنهم يثبتون صفة المحبة لله تعالى، ويفسِّرون الآيات التي وردت فيها محبة الله لعباده الصالحين بهذه الطريقة، دون تأويل للمحبة بالطاعة أو غير الطاعة.

ويرى تفسير المنار⁽⁴⁾: أنه لا داعي لتأويل المحبة؛ إذا أنها شأن من شئون الله عز وجل.

هذا كله عن حبّ الله للإنسان

---

(١) لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات ص٣٦٠ ـ ٣٦١

(٢) السيد شريف الجرجاني: شرح المواقف جـ٥ ص١٣١

(٣) اقرأ في ذلك: ابن تيمية: الرسالة التدمرية

(٤) تفسير المنار جـ٦ ص٤٣٨

حب العبد لله تعالى

أما حب الإنسان لله سبحانه وتعالى وهو أكثر اتصالاً بموضوعنا فقد أنكره كذلك المعتزلة، وكثير من الأشاعرة؛ وذلك لأن الحب بين الطرفين يقتضي المناسبة والتجانس بينهما، ولا مناسبة ولا تجانس بين العبد والرب سبحانه وتعالى.

فإذا قلنا: إن العبد يحب الله سبحانه وتعالى يوهم ذلك التماثل والتجانس ولهذا فإن ماورد في القرآن الكريم من نسبة حب العبد لله تعالى مثل:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾(١)

و ﴿ . . . فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢)

و ﴿ . . . وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾(٣)

فإن كل ذلك يعني حب طاعته تعالى، أو إرادة طاعته، يقول الرازي(٤) عن جمهور المتكلمين «إن المحبة نوع من أنواع الإرادة، والإرادة لا تعلق لها إلا بالجائزات، فإذا قلنا: نحب الله، فمعناه نحب طاعة الله وخدمته، أو نحب ثوابه وإحسانه».

ثم يضيف(٥) رأياً مخالفاً يميل إليه كما هو واضح في تفسيره: وأما العارفون فقد قالوا: العبد قد يحب الله تعالى لذاته، وأما حب ثوابه فدرجة نازلة.

ويقول صاحب شرح المواقف(٦) «. . . محبتنا لله إرادتنا لطاعته، وامتثال أوامره ونواهيه».

---

(١) سورة آل عمران آية ٣١.

(٢) سورة المائدة آية ٥٤.

(٣) سورة البقرة آية ١٦٥.

(٤) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب جـ٤ ص٢٢٧).

(٥) المرجع السابق.

(٦) جـ٦ ص١٣١ ـ ١٣٢

(٧) جـ٥ ص١٣١.

ثم يذكر رأياً ثانياً مخالفاً لذلك فيقول: وقد يقال: محبتنا لله سبحانه كيفية روحانية، مترتبة على تصور الكمال المطلق الذي فيه على الاستمرار، ومقتضية للتوجه التام إلى حضرة القدس، بلا فتور وفرار.

وبعد هذا العرض الذي بينا فيه أصل الخلاف بين العلماء حول هذه القضية، نرى: إمكان قيام الحب بين الإنسان وربه، وعدم الحاجة إلى تأويل المحبة أو الحب إلى الطاعة، ولكي نثبت ذلك نذكر معنى الحب أو محبة الإنسان أولاً، ثم نشرح أن قيامها من قبل العبد إلى الله تعالى غير مستحيل.

لقد ذكر كثير في معنى المحبة في اللغة، فقيل: هي مأخوذة من حبَّة القلب، وهي سويداؤه، ويقال: ثمرته، فسميت المحبة بذلك لوصولها إلى حبة القلب(١).

ولعل أحسن ما قيل فيها: إنها مأخوذة من الحب جمع حبة، وهو لباب الشيء وخالصه وأصله، فإن الحب أصل النبات والشجر(٢)

ويذكر ابن قيِّم الجوزيه(٣) - بعد ذكر معناها اللغوي - عن حدها في كلام الناس معاني كثيرة، منها: الميل الدائم بالقلب الهائم، وإيثار المحبوب على جميع المصحوب والغيرة للمحبوب أن تنتقص حرمته، والغيرة على القلب أن يكون فيه سواه.

ويقول الغزالي «... إن المدركات في انقسامها تنقسم إلى:
مايوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه.
وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه.
وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلام وإلذاذ.

فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك، وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك، وما يخلو من استعقاب ألم ولذة فلا يوصف بكونه محبوبا، ولا مكروها

---

(١) ابن القيم: روضة المحبين ص١٧، وانظر لسان العرب جـ١ ص٥٤٤ وانظر في هذا المعنى أبا القاسم الحسين بن محمد الراغب الاصفهاني: المفردات في غريب القرآن: ص١٠٥.

(٢) ابن القيم: روضة المحبين ص١٨

(٣) المصدر السابق

(٤) احياء علوم الدين جـ٤ ص٢٥٤

وهذا يعني: أن المحبوب ما يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه، ويدل كلام الغزالي: على أن الحب والكره أو البغض ليسا نقيضين، بل هما ضدان لا يجتمعان معا، ولكنهما يمكن أن يرتفعا معاً، إذ يقول ـ كما أشرنا آنفاً «وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة فلا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها».

ومعنى ذلك: أننا إذا لم نحب شيئاً أو شخصاً فلا يعني ذلك بالضرورة أننا نكرهه أو نبغضه، وهذا بخلاف ما يذكره لسان العرب(١): أن الحب يقتضي البغض ولعله قصد الضد، فقد يأتي بعضهما بمعنى الآخر.

ثم يقول الغزالي مضيفاً وموضحاً(٢) «... فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمي عشقا، والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب، فإذا قوى سمي مقتاً، فهذا أصل في حقيقة معنى الحب»

وصاحب فتح الباري يذكر معنى الحب عند شرح أحاديث الرسول ﷺ. «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه(٣)».

وحديث الرسول ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده، والناس أجمعين)(٤)

عن أبي عقيل زهرة بن معبد: أنه سمع جده عبدالله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يارسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ له: لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحبّ إليك من نفسك، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحبّ إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: الآن ياعمر(٥))

فيقول(٦):

---

(١) جـ١ ص٥٤٤

(٢) احياء علوم الدين جـ٤ ص٢٥٤

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري جـ١ ص٥٤

(٤) المصدر السابق جـ١ ص٥٥

(٥) المصدر السابق جـ١١ ص٤٥٨

(٦) المصدر السابق جـ١ ص٥٤

المحبة: الميل إلى مايوافق المحب، وقد تكون بحواسه، كحسن الصورة، أو بفعله: إما لذاته كالفضل والكمال، وإما لإحسانه لجلب نفع، أو دفع ضرر، ثم يقول: وقال الخطابي: حب الإنسان نفسه طبع، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد عليه الصلاة والسلام حب الاختيار؛ إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه، فعلى هذا فجواب عمر أولاً كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال: أن النبي ﷺ أحب إليه من نفسه، بدلاً من لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرى، فأخبر بما اقتضاه الاختيار، ولذلك حصل الجواب بقوله: الآن يا عمر، أي الآن عرفت، فنطقت بما يجب.⁽¹⁾

ويدل كلام ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ على أن المحبة نوعان. محبة جبل عليها الإنسان، وأخرى يكسبها الإنسان بالنظر والتفكير.

وإذا كان البعض ينكرون محبة العبد لله تعالى مؤولين الآيات التي نزلت في هذا الموضوع كما أشرنا، فإن ابن تيمية الذي ينكر التأويل بل ينكر المجاز في اللغة أصلا⁽²⁾ويرى: أن كلمة العبادة وضعت للخضوع والمحبة معا⁽³⁾، يثبت المحبة: محبة الله الخالق لمخلوقاته، ومحبة المخلوقات للخالق كما ورد في القرآن الكريم، دون تأويل في آياته

يقول ابن تيمية⁽⁴⁾ «فتأول البعض محبة العباد له بمجرد محبتهم لطاعته والتقرب إليه»

ثم يرد على ذلك بعدة أدلة، منها:

١ ـ «ألا ترى: أن من استأجر أجيراً بعوض لا يقال: إن الاجير يحبه بمجرد ذلك؛ بل قد يستأجر الرجل من لايحبه بحال، بل من يبغضه، وكذلك من افتدى نفسه بعمل من عذاب معذب لا يقال: إنه يحبه، بل يكون مبغضاً له.

فعلم أن ماوصف الله به عباده المؤمنين: من أنهم يحبونه، يمتنع أن يكون معناه

---

(١) فتح الباري جـ١١ ص٤٥٨

(٢) انظر كتاب الإيمان وقد اشرنا إلى رأيه في صفحة ٦

(٣) المصدر السابق وقد أشرنا إلى ذلك في المعنى اللغوي للعبادة.

(٤) التحفة العراقية في الاعمال القلبية ص١١٤

مجرد محبة العمل الذي ينالون به بعض الأغراض المحبوبة، من غير أن يكون ربهم محبوباً أصلاً(١).

٢ ـ لقد فرق بين محبته ومحبة العمل له في قوله ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ(٢)﴾.

كما فرق بين محبته ومحبة رسوله في قوله (أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ)(٣).

فلو كان المراد بمحبته ليس إلا محبة العمل لكان هذا تكريراً، ومن باب عطف الخاص على العام، وكلاهما على خلاف ظاهر الكلام الذي لا يجوز المصير إليه إلا بدلالة تبين المراد.

وكما أن محبته لا يجوز أن تفسر بمجرد محبة رسوله، فكذلك لا يجوز تفسيرها بمجرد محبة العمل، وإن كانت محبته تستلزم محبة رسوله ومحبة العمل له(٤).

٣ ـ وأيضا فالتعبير بمحبة الشيء عن مجرد محبة طاعته لا عن محبة نفسه أمر لا يعرف في اللغة، لا حقيقةً ولا مجازاً، فحمل الكلام عليه تحريف محض، فلو كان الذي قالوه حقاً من كون ذلك مجازاً لما فيه من الحذف والإضمار فالمجاز لا يطلق إلا بقرينة تبين المراد(*)

ومعلوم، بدلاً من أن ليس في كتاب الله وسنته ورسوله ما ينفي أن يكون الله محبوباً، وأن لا يكون المحبوب إلا الأعمال، لا في الدلالة المتصلة، ولا المنفصلة، بل ولا في العقل أيضا.

فمن علامات المجاز صحة إطلاق نفيه، فيجب أن يصح إطلاق القول: بأن الله لا يحب، ولا يُحب، كما أطلق إمامهم جعد بن درهم: أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلّم موسى تكليما.

---

(١) المصدر السابق

(٢) سورة التوبة آية ٢٤

(٣) سورة التوبة آية ٢٤

(٤) التحفة العراقية ص١١٥ بتصرف واختصار.

(*) يلاحظ ان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ينكر المجاز في اللغة اصلاً كما أشرنا سابقاً وكما ناقش ذلك بالتفصيل في كتابه الإيمان والظاهر انه يقول ذلك هنا مجاراة للخصم.

ومعلوم: أن هذا ممتنع بإجماع المسلمين، فعلم بدلالة الإجماع على أن هذا ليس مجازاً بل هي حقيقة(١).

وأما قولهم: إنه لا مناسبة بين المحدث والقديم توجب محبته له، وتمتعه بالنظر إليه، فهذا الكلام مجمل، فإن أرادوا بالمناسبة: أنه ليس بوالد فهذا حق، وإن أرادوا أنه ليس بينهما من المناسبة ما بين الناكح والمنكوح، الاكل والمأكول، ونحو ذلك، فهذا أيضا حق.

وإن أرادوا أنه لا مناسبة بينهما توجب أن يكون أحدهما محباً عابداً، والآخر معبوداً محبوباً، فهذا هو رأس المسألة، والاحتجاج به مصادرة على المطلوب، ويكفي في ذلك المنع، ثم يقال: بل لا مناسبة تقتضي المحبة الكاملة إلا المناسبة التي بين المخلوق والخالق الذي لا إله غيره، الذي هو في السماء إله، وفي الارض إله، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض(٢).

ويضيف بعد تفنيد أدلتهم:

«المقصود هنا: إنما هو في ذكر محبة العباد لله، وقد تبين أن ذلك هو أصل أعمال الإيمان، ولم يتبين بين أحد من سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان نزاع في ذلك(٣).

بل اتفقت الأمتان قبلنا على ما عندهم من مأثور، وحكم، عن موسى، وعيسى، أن أعظم الوصايا: أن تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك

وهذا هو حقيقة الحنيفية ملة إبراهيم التي هي أصل شريعة التوراة والإنجيل والقرآن، وإنكار ذلك هو مأخوذ من مقال الصابئين أعداء إبراهيم الخليل ومن وافقهم على ذلك(٤).

أما الغزالي ـ رحمه الله ـ فقد تحدَّث طويلاً في كتابه: الإحياء، للرد على من يزعم عدم إمكان قيام الحب أو المحبة بين الإنسان والخالق سبحانه وتعالى، فقسَّم أولاً الأسباب التي تدفع الإنسان إلى حب شيء أو شخص إلى خمسة أقسام:

---

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر السابق ص١١٧

(٣) المصدر السابق صفحة ١١٨

(٤) المصدر السابق صفحة ١١٦ ـ ١١٧

١ ـ حبّ الإنسان لنفسه وذاته.
٢ ـ الإحسان أو حبّ الإنسان لمن أحسن إليه.
٣ ـ حبّ الشيء أو المحسن لذاته، لا لحظ ينال منه وراء ذاته، كحبِّنا لملك عادل وإن لم يحسن إلينا مباشرة.
٤ ـ حب كل جميل لذات الجمال، لالحظ ينال منه وراء إدراك الجمال، ويدخل في ذلك المحسوسات وغير المحسوسات؛ فالحسن ليس مقصوراً على المحسوسات فقط؛ إذ الموصوف بالأخلاق الجميلة والعلم والعقل والشجاعة والتقوى . . الخ محبوب بالفطرة
٥ ـ المشاكلة والمناسبة، أوحبّ الإنسان شيئاً آخر للمشاكلة، أو المناسبة الموجودة بين الطرفين. *

وكل سبب من هذه الأسباب يقتضي أن يحبّ الإنسان الخالق تعالى غاية المحبة؛ إذ لو كان حبّ الإنسان نفسه ضرورياً فحبه لمن به قوامه أولاً ودوامه ثانياً (وهو الله تعالى) ضروري أيضاً، وما ينطبق على القسم الأول ينطبق على القسم الثاني؛ إذ أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز، وإنما المحسن الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى، فهذا يقتضي حبه تعالى، بل يمكننا أن نقول: إن ذلك نفسه ينطبق على القسم الثالث، إذ أن الله خالق الحسن، وخالق المحسن، وخالق الإحسان، وخالق أسباب الإحسان.

---

* يذكر الغزالي اثناء شرحه الطويل في هذا الموضوع كلمتين هما: الأصل والسبب في شيء من التداخل. فهو يقول في صفحة ٢٥٤ تحت عنوان (بيان حقيقة المحبة واسبابها وتحقيق معنى محبة العبدلله تعالى): الأصل الثاني، ثم يقول في صفحة ٢٥٥ الأصل الثالث . . . دون أن يذكر ان الأصل الأول لهذا الثاني والثالث، ويعقب ذلك قوله في ٢٥٦ السبب الثالث، ثم في الصفحة نفسها الأصل الرابع ثم يقول في صفحة ٢٥٨ السبب الخامس دون أن يسبقه السبب الرابع.

ويشير في صفحة ٢٥٨ تحت عنوان «بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده فيقول» . . نرجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتيها . . . » ثم يشرح بعد ذلك كل سبب على حده للاستدلال على أن كلَّ واحد من تلك الاسباب تتوافر أكثر ما تتوافر في علاقة الإنسان بالباري تعالى

فاذا ما حاولنا أن نفسِّر تقسيم الغزالي لاسباب الحب في القسم الأول الذي تحدثنا عنه، في ضوء هذا القسم الاخير الذي يبدأ من صفحة ٢٥٨ نستطيع أن نقول أن للحب عند الغزالي هذه الأسباب الخمسة المذكورة آنفا.

هذه هي الأنواع أو الأسباب الثلاثة للحب التي تتوافر أكثر ما تتوافر بين الإنسان وخالقه، إلا أننا بمراجعة آراء علماء الكلام التي أشرنا إليها فيما مضى نلاحظ: أنهم لم ينكروا هذه الأسباب وتوفرها بين الخالق تعالى والمخلوق، ولكنهم يفسِّرون ذلك بمحبة العبد لطاعته وثوابه وإحسانه*.

أما عن السبب الرابع وتوافره بين الإنسان والخالق فيقول الغزالي(١): «وهذا يقتضي أيضاً حب الله تعالى «لأن جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً يرجع إلى ثلاثة أمور: أحدها: علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه

والثاني: قدرتهم على إصلاح أنفسهم، وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة
والثالث: تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة، الصارفة عن سنن الخير، الجاذبة إلى طريق الشر.

ويمثل هذا بحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم. أما العلم فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى؟ وكذلك القدرة.

وأما صفة التنزه . . والأنبياء والصديقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث، فلا يتصور كمال التقدس والتنزه إلا للواحد الحق، الملك القدوس، ذي الجلال والإكرام.

وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص، وعن نقائص، بل كونه: عاجزاً، مخلوقاً مسخراً، مضطراً، هو عين العيب والنقص(٢).

وأما السبب الخامس للحب: فهو المناسبة والمشاكلة؛ لأن شبه الشيء منجذب إليه، والشكل إلى الشكل أميل . .

وهذا السبب أيضاً يقتضي حب الله تعالى لمناسبة باطنة، لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال، بل إلى معان باطنة، يجوز أن يذكر بعضها في الكتب، وبعضها لا يجوز أن يسطر، بل يترك تحت غطاء الغبرة، حتى يعثر عليه السالكون للطريق، إذا استكملوا شرط السلوك.

---

(١) الاحياء جـ٤ ص٢٦٠ - ٢٦١

* ولذلك اوجزنا في بيان هذه الاسباب الثلاثة.

(٢) المصدر السابق ٢٦٠ - ٢٦١

فالذي يُذكر هو قرب العبد من ربه عزَّ وجل في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية، حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله؛ وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية: من العلم، والبر، والإحسان، واللطف، وإفاضة الخير والرحمة على الخلق، والنصيحة لهم، وإرشادهم إلى الحق، ومنعهم من الباطل، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة، فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى، لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات(١).

وإذا كان كل من اللذة والكمال مطلوبين لذواتها؛ فإنه إذا قيل لنا: لم تكتسبون؟ قلنا: لنجد المال. فإن قيل: ولم تطلبون المال؟ قلنا: لنجد به المأكول والمشروب. فإن قالوا: لم تطلبون المأكول والمشروب؟ قلنا: لتحصل اللذة ويندفع الألم. فإن قيل لنا: ولم تطلبون اللذة وتكرهون الألم؟ قلنا: هذا غير معلل. .

«وأما الكمال فلأنا نحب الأنبياء والأولياء، لمجرد كونهم موصوفين بصفات الكمال . . .(٢).

نقول: إذا كان الأمر كذلك؛ فإن الغزالي يقول: إن أقوى اللذات جميعا هي لذة معرفة الله تعالى.

فيقول(٣): بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم. « . . . . ليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة، حتى إن الذي ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به . . ولذة العلم بقدر شرف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم.

«وعلى هذا فإن ألذ العلوم العلم بالله تعالى، وبصفاته، وأفعاله، وتدبيره في مملكته . . .

وإنما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها؛ فان المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة، إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة، علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة . . .

---

(١) المصدر السابق ٢٦٣

(٢) انظر فخر الدين الرازي: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) جـ٤ ص٢٢٨

(٣) الاحياء جـ٤ ص٢٦٤ - ٢٦٦

«فلو خُيِّر الرَّجل بين لذة الدجاج السمين وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المخير خسيس الهمة، ميت القلب، شديد النهمة، اختار اللحم والحلاوة، وإن كان عالي الهمة، كامل العقل، اختار الرئاسة، وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة.

«ومثال أطوار الخلق في لذاتهم: أن الصبي يستلذ اللعب على غيره، ثم يكبر فيستلذ الزينة وركوب الدواب، فيستحقر لذة اللعب، ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء، فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها، ثم تظهر لذة الرئاسة والعلو والتكاثر، وهي آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها، ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله، ومعرفة أفعاله، فيستحقر معها جميع ماقبلها، فكل متأخر فهو أقوى..

وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرئاسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى والعارفون يقولون: إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون، فسوف تعلمون(١).

وبالنظر في كلام الغزالي يتضح لنا: أن مجرد تصور (الله الخالق) سبحانه وتعالى يؤدي إلى حبه سبحانه وتعالى، ذلك لأن من أنعم علينا بنعمة واحدة نميل بالضرورة إليه، فما بالك بمن أنعم علينا بكل شيء بما فيه الوجود نفسه، وإن بقاءنا كل لحظة من اللحظات مرهون بنعمته وإحسانه وكرمه.

وإذا كان الإنسان يحب من وجد فيه صفة من صفات الكمال الإنساني، فمن باب أولى أن نحب من وجد فيه جميع صفات الكمال الإلهية.

أما من لم يعرف الله، أو انشغل بالشهوات البدنية عن الله، فإنه لا يذوق لذة محبة الله سبحانه وتعالى.

ويمكن لنا أن نقسم الأسباب التي ذكرها الغزالي إلى ثلاثة أقسام:
فقسم منها: وهو السبب الأول والثاني يعود كما ذكر الغزالي نفسه إلى حب الإنسان لنفسه، إذ أنه يحب نفسه، ويحب كل ما ينفعه في البقاء والدوام والكمال .. الخ

---

(١) المصدر السابق ٢٦٧ ـ والآية ٣٨ من سورة هود

وقسم منها: وهو السبب الثالث والرابع يعود إلى حب الإنسان لمطلق الحسن والجمال والإحسان حتى وإن لم يتعلق به هو شخصياً ولم تعد فائدته إليه.

وقسم ثالث: وهو السبب الأخير يعود إلى وجود التناسب بين العبد والخالق سبحانه وتعالى، هذا التناسب الذي ينكر المتكلمون بإنكاره وجود الحب بين الإنسان وربه سبحانه وتعالى، ويقر به الغزالي، ويثبته. عن طريقين:

طريق لا يستطيع ولا يصح أن يبوح به، وآخر هو طريق الصفات، أي وجود صفات مشتركة - ولو بالاسم فقط - بين الإنسان وخالقه تعالى.

فإذا كان علماء الكلام ينكرون حب العبد لله تعالى مؤولين الآيات التي وردت بذلك بحجة عدم التناسب الموجود بين الإنسان والخالق تعالى، فإن الغزالي ينكر عليهم حجتهم، ويرى: أن هناك تناسباً يصح أن يبني عليه قضية حب الإنسان لله تعالى.

وإذا كان بعضهم يرى: أن الإنسان لا يحب إلا نفسه، أو ما يعود على نفسه بالفائدة، فإن الغزالي يثبت بالأمثلة والشواهد أن ذلك ممكن، بل واقع فعلاً في حياة البشر، فلا مبرر لإنكاره في مابين الإنسان وخالقة.

وإذا كان البعض أيضا يرى: أن قضية حب الإنسان لنفسه بديهية وضرورية فإن الغزالي يبني على القضية نفسها ما ينكره هؤلاء من حب الإنسان لله تعالى كما رأينا.

والإسلام كمنهج لبناء الإنسان وإصلاح المجتمع البشري، إذ يقدم دعوته، يحاول توظيف كل مشاعر الحبّ لصالح هذا المنهج، حتى تقوم العلاقة بين الإنسان وخالق الكون على أساس من الحب العميق.

ولهذا يلفت القرآن الكريم نظر الإنسان إلى مخلوقات الله، إذ أنه حيث التفت يميناً أو شمالاً، أو فوقاً أو تحتاً، وحيث نظر في السماء والأرض والبحار والجبال والوديان والأنهار والشمس والقمر والنجوم والسحاب وما ينزل الله من السماء من ماء.. الخ بل إن الإنسان إذا نظر إلى نفسه؛ فإن كل عضو من أعضاء بدنه وكل خلية من خلاياه تشهد بأنعم الله سبحانه وتعالى عليه، ولا يملك إلا أن يقول في كل نفس: الحمد لله والشكر لله

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا (٦) وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾(١)

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾(٢)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ . . . ﴾(٣)

وقد أحسن من لاحظ أن أداء الشكر أو القيام بالشكر لله تعالى يقتضي شكراً آخر وهكذا . . الخ، ذلك لأن الذي يمكِّنه من القيام بالشكر هو نفسه الذي يشكره الإنسان الذي ينال ثواباً حتى عند القيام بكل شكر للباري تعالى، فكلّ شكر نعمةٌ يستحق عليها الباري شكراً آخر . .

يقول صاحب المنار(٤) وهو يفسِّر قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

«هذا ما نراه كافياً في فهم الآيات، وليس عندنا فيها عن الأستاذ الإمام شيء، وإن من الباحثين من يخفى عليه معنى حب الله للناس وحبهم إياه، فنوضح ذلك بعض الإيضاح:

---

(١) سورة النبأ آية ٥ ـ ١٥

(٢) سورة عبس آية ٢٤ ـ ٣٢

(٣) سورة المؤمنون آية ١١ ـ ١٣

(٤) تفسير المنار جـ٣ ص٢٨٤ والآية ٣١ آل عمران

حب الناس لله يجهله من يعيش كما تعيش الديدان والبهائم، لا يشغله إلا هم قبقبه وذبذبه، ويعرفه الحكماء الربانيون، والمؤمنون الصالحون.

ويمكن تقريبه من فهم الجاهل المستعد للعلم، وتشويقه إليه بإرشاده إلى مراجعة فطرته، والبحث في أسباب حب الناس لكثير من الأشياء التي لا يحبها حيوان آخر.

ثم يأخذ يشرح هذه الأسباب وهي في معظمها لا تخرج عما يذكره الإمام الغزالي، وشرحناه منذ قليل.

ثم يضيف(١) فهذا هو حب الله عز وجل ـ حبه في كل محبوب، لمشاهدة جماله في كل جميل، ورؤية إبداعه في كل بديع، ومعرفة كماله في كل كامل؛ لأنه مصدر كل شيء. الذي أحسن كل شيء خلقه، هو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وهو بكل شيء عليم.

وهكذا نلاحظ كم نظر ابن تيمية ـ رحمه الله ـ نظرة أعمق وأشمل إلى الموضوع عندما أوضح: أن المطلوب في الشرع ليس هو الخضوع لله فقط، بل لا بد من حب الخالق سبحانه وتعالى الذي خلق وأنعم وهدى، فأحسن الخلق والإنعام والهداية.

الحب والعبادة:

ولكننا على الرغم من كل ما ذكرنا، فإننا لم نناقش إلا أساس قضية عامة لا تلزم من صحتها صحة القضية الخاصة التي نحن بصددها، وهو العلاقة بين الحب والعبادة، وإن كانت تشكل أساساً لها (لتلك القضية الخاصة) ويلزم من إنكارها إنكار القضية الخاصة.

ولهذا نجد أنفسنا مدفوعين مرة أخرى إلى التساؤل بشكل خاص إذا كانت المحبة ممكنة بل ضرورية بين الإنسان والخالق سبحانه وتعالى، فهل هي أي المحبة أساس العبادة، فلا تتحقق دونها، حتى إذا ما خضع الإنسان للأصنام أو غيرها خضوعاً تاماً ولكن دون حب لها لا يعتبر خضوعه هذا عبادة؟

أم هي أساس العبادة المأمور بها في الشرع، إذا ما خضع الإنسان لله وأطاعه

---

(١) المصدر السابق ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

وأتمر بأوامره وانتهى بنواهيه. . لا عن حب تمكن من قلبه، بل عن خوف ورهبة وخشية فقط لا يكون قد عبدالله تعالى في نظر الشرع. ؟
وأخيرا، هل الحب شرط لصحة العبادة في الشرع أم لكمالها فقط؟

وفيما يتعلق بالنقطة الأولى فإنها تعود إلى سؤال آخر وهو: هل كانت الآلهة دائماً وأبداً ـ عند أتباعها ـ مصدر خير وسعادة وكرم، أم أن هناك آلهة أيضاً هي في نظر أصحابها مصدر الشر والشقاء والغضب؟

فإذا صحت القضية الثانية فإنها تعني: أن تلك الأمم والأقوام، اتجهت بالطاعات والنذر والقرابين لآلهتها، لا حباً أو حتى طمعاً فيها، وإنما اتقاءً لشرها

وربما أقرب مثال في ذلك :أن المجوس يعتقدون في إلهين اثنين، إله الخير، وإله الشر، أو خالق الخير، وخالق الشر، فإذا ما قدم المجوسيُّ النذر والقرابين لإله الشر، فإنه لا يقدمها ـ بطبيعة الحال ـ حبًّا فيه وإنما اتقاء شره، وخوفاً من بطشه، ومع ذلك فإن هذا الخضوع يسمى عبادة.

كما أن بني اسرائيل لم يكونوا يحبون فرعون الذي كان يسومهم أشد العذاب؛ إذ يستحي نساءهم، ويقتل أولادهم، ولا يسمح لهم حتى بالخروج من أرض مصر، بل جعلهم خدماً عبيداً أذلةً تحت إمرته، حتى عندما خرجوا مع موسى تبعهم فرعون بجنوده، ليعيدهم إلى خدمته.

وعلى الرغم من ذلك فإنهم كانوا يقدمون له أنواع الطاعة والقرابين⁽¹⁾.
والقرآن الكريم يقول على لسان فرعون: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾⁽²⁾

ولا يعقل أن تكون طاعتهم عن حب له مع كل ماكانوا يرونه من فرعون وملئه.

وهكذا كثيراً ما قدم الأبناء فلذات الأكباد، وقدم الفقير قوت يومه تقرباً

---

(1) انظر ابي الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري: النكت والعيون: تفسير الماوردي جـ٣ ص٩٨ اذ يقول نقلا عن البعض: كان بنو اسرائيل يعبدون فرعون. .
(2) سورة المؤمنون آية ٤٧

للآلهة، وليس بالضرورة أن يكونوا جميعاً قد قدّموا كل ذلك عن حب عميق لتلك الآلهة.

وفي الإسلام إذا قام المسلم بتقديم هذه الاعمال لغير الله، سواء أكان هذا الغير شجراً أو حجراً أو قبراً أو بشراً حياً، خوفاً من هذه الاشياء، فإننا نعتبر كل هذه الأعمال عبادة لغير الله، أشرك بها أصحابها شركاً كبيراً.

وأهل الكتاب الذين قال الرسول ﷺ عنهم: إنهم يعبدون أحبارهم ورهبانهم، لا يشترط أن يكونوا جميعاً يحبون الأحبار والرهبان الذين كانوا يفرضون عليهم ضرائب وصكوك الغفران.. الخ منتهى المحبة، بل رب نصراني أو يهودي يبغضهم، ومع ذلك فإن الرسول ﷺ قال: إنهم يعبدونهم، وعلل ذلك بأنهم يحرمون لهم الحلال ويحلون لهم الحرام فيتبعونهم.

أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية، وهي: العبادة المأمور بها في الشرع فمن الواضح أن منتهى المحبة أو الحب ليس شرطاً في صحتها، حتى نقول: إن العبادة لا تتحقق إلا بمنتهى المحبة.

بل تقتضي الشواهد والأمثلة، كما يقتضي منطق الأمور، أن يكون شرط كمالها فقط، لأن منتهى محبة الله تقتضي محبة كل ما ومن يحبه الله، وكره كل ما ومن يكرهه الله، وبالتالي محبة عباد الله الصالحين، ومحبة الطاعة وإن كانت فيها مشقة بدنية، وبغض الكفار وإن كانوا من الآباء والأبناء، وبغض المعاصي كلّها وإن كانت موافقة ومستجيبة للشهوات، حتى يأتي الشخص بالطاعات، ولا يحس فيها بمشقة بل بلذة كبيرة، ويمتنع عن الشهوات، ولا يحس في الامتناع عنها بأية صعوبة، بل يجد فيها كل لذة.

وهذا مقام قلّ من يبلغه من عباد الله، فإذا كانت عبادة من لم يبلغ هذا المقام صحيحة - وهي صحيحة باتفاق العلماء والأمة - فإن منتهى المحبة ليس شرطاً في صحة العبادة، وإنما لا تصل العبادة إلى كمالها إلا إذا بلغ العابد ذلك المقام.

ومن يصل إلى منتهى محبة الله فلا بد أن يكون همه كله من سعيه في دنياه وأنشطته في الحياة، هو مرضاة الله (المحبوب) لا يبتغي منها شيئاً سواها، ولا تحركه بواعث أخرى، فيوجه بأعماله كلِّها إلى الله تعالى، العبادات والمباحات على السواء.

أما إذا قام بالمباحات لنفسه، أو حبًّا في الدنيا، أو تحقيقاً لشهواته، فلا يكون قد بلغ مقام منتهى المحبة؛ إذ أنه أحبَّ الدنيا على الله تعالى.

فلو كان منتهى المحبة شرطاً في صحة العبادة لكانت عبادة الشخص الذي يقوم ببعض المباحات حبًّا في الدنيا غير صحيحة.

وهذا ما لا يقول به العلماء

ومما يثلج الصدر ويريح البال أن الإمام ابن تيمية ـ رحمة الله ـ لم يجعل منتهى المحبة شرطاً لتحقيق العبادة، في مواضع أخرى، بل شرطاً لكمالها فقط. فيقول(١): «. . . إذا تبين ذلك، فمعلوم أن الناس يتفاضلون في هذا الباب تفاضلاً عظيماً وهو تفاضلهم في حقيقة الإيمان»

ويقول في موضع آخر(٢) «. . . فكلما قوى إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات».

وهذا ـ أي كون منتهى الحب من شروط كمال العبادة وليس من شروط تحقيقها في الأصل ـ هو ما يتمشى مع منطق الأمور وواقع الناس.

فلا يعقل أن يوجب الإسلام على الناس جميعاً أن يكونوا ـ بالضرورة ـ في مثل إيمان عمر، وأبي بكر، وغيرهما من الصحابة، ويحبوا الله ورسوله أكثر من أولادهم وآبائهم، بل من أنفسهم، وإلّا لا تصح ولا تقبل لهم العبادة والصلاة والصيام أبداً، وبذلك يكون الإسلام دين الواقعية يراعي واقع الناس، وواقع المجتمع الذي لا بد أن يكون فيه درجات مختلفة من البشر.

والعبادة مطالب بها الناس جميعاً، وليست فئة الصفوة الممتازة المقربين، فلا يتوقف تحقيقها على شرط لا يستطيع القيام به عملياً إلا فئة قليلة.

وما ينطبق على منتهى الحب أو المحبة يمكن أن ينطبق على أصل الحب، أو مجرد الحب.

---

(١) العبودية ص٨٧

(٢) المرجع السابق ص١١٤

فإن من يعبد الله تعالى خوفاً من عذابه وعقابه فقط، تصح عبادته، والناس كما يشهد الواقع، وكما تقتضي طبيعة الأمور، ليسوا على درجة واحدة في الدوافع التي تدفعهم إلى طاعة الله؛ إذ أن هناك من يعبد الله طمعاً في هذه الدنيا، كأن يشفيه، أو ينقذه من مهلكة، أو مشكلة، أو ألم . . الخ وكثيراً ما إذا حصل على مراده نسي عبادة الله تعالى، بل نسي الله أصلاً.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾(١)

وهناك من يعبد الله طمعاً في جنته وخوفاً من عذابه في الآخرة مع الدعاء للدنيا أيضا.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(٢)

وهناك من يعبد الله طمعاً في مرضاته فقط كالرابعة العدوية مثلاً.

وعلى هذا فإذا قلنا بأن القسم الأخير يعبد الله حبًّا في مرضاته، فإن القسمين الآخرين ليسا كذلك، وإنما عبادتهم خوفاً وطمعاً، والطمع في النعمة لا يقتضي بالضرورة المحبة، فإذا طمع في الدنيا فقط فليس له في الآخرة من خلاق، أما اذا طمع في الآخرة فلا بد أن عبادته صحيحة، وهو مثاب تماماً عليها، مع أن القسم الأخير قد تكون درجته أعلى منه، ومما يدل على ذلك ما يذكره الرازي(٣) أنه: روي أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر، وقد نحلت أبدانهم، وتغيرت ألوانهم فقال لهم: ماالذي بلغ بكم إلى ماأرى؟ فقالوا: الخوف من النار، فقال حق على الله أن يؤمن الخائف، ثم تركهم إلى ثلاثة آخرين، فإذا هم أشد نحولاً وتغيراً، فقال لهم: ماالذي بلغ بكم إلى هذا المقام؟ قالوا: الشوق إلى الجنة، فقال: حق على الله أن يعطيكم ما ترجون، ثم تركهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولاً وتغيراً، كأن وجوههم المرايا من النور، فقال: كيف بلغتم إلى هذه الدرجة، قالوا: بحب الله، فقال عليه الصلاة والسلام: أنتم المقربون إلى الله يوم القيامة، وعند السدى قال: تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٠

(٢) سورة البقرة آية ٢٠١

(٣) الرازي: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) جـ٤ ص٢٢٧ وقد أوردنا الرواية لتوضيح وجهة نظر الرازي في أن العبادة قد تكون عن خوف فقط ويستحق صاحبها الجنة وذلك بغض النظر عن الرواية نفسها.

فيقال: ياأمة موسى، ويا أمة عيسى، ويا أمة محمد، غير المحبين منهم، فإنهم ينادون: ياأولياء الله، وفي بعض الكتب «عبدى أنا وحقك لك محب، فبحقي عليك كن لي محبًّا.»

وهكذا نلاحظ أن العبادة الشرعية المأمور بها قد تتحقق دون الحب، أو على الأقل تتحقق درجة من درجاتها، مما يدل على أن منتهى الحب أو المحبة ليست ركناً أساسياً في العبادة المأمور بها في الشرع.

وإذا قيل كيف يعبد الله ولا يحبه ويبغضه أو يسخطه والعياذ بالله؟ والجواب: أن عدم تحقق المحبة لا يعني بالضرورة البغض والسخط، ذلك لأن المحبة مقام لا يصل إليه كل مسلم ومؤمن، ولكنه من لا يصل إليه لا يعني أنه مبغض وساخط والعياذ بالله، وبعبارة أخرى فان المحبة والبغض ليسا نقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، وإنما هما ضدان لا يجتمعان، ولكنهما قد يرتفعان معاً، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً(١) وذلك شأننا مع كثير من الناس الذين نتعامل معهم، أولا نتعامل معهم والإمام ابن تيمية رحمه الله جعلهما نقيضين إذ يقول «ومن خضع لإنسان مع بغضه له . . .» كما سبق ذكره

وعلى هذا لايلزم من عدم الوصول إلى مقام المحبة، البغض والسخط والعياذ بالله. وإذا قيل: إن هذا يمكن أن يتصور بين اثنين عاديين، ولكن لا يتصور بين المنعم والمنعم عليه، أو عبد وسيده، وخاضع ومخضوع إليه، فإن العلاقة بينهما لا بد أن تكون: إما الحب، وإما الكره.

نقول: نعم إن الأمر قد يختلف في الغالب الأعم، ولكن ليس بالضرورة، فإن المنعم عليه قد تشغله النعم التي أنعمها عليه المنعم عن التفكير في المنعم، وحبه أو عدم حبه. فقد يحب هذه النعم نفسها، وينشغل بها، ولا يفكر في المنعم نفسه، ولا سيما إذا كان غير قابل للإدراك والإحاطة بالبصر؛ وتأتيه النعم عن طريق الأسباب المادية المعروفة المرئية المتصلة به دائما؛ وذلك هو شأن معظم الناس الذين شغلتهم الدنيا بأحوالها ومباهجها ونعمها عن الخالق المنعم سبحانه وتعالى، حتى ظلوا لا يطمعون في أكثر من هذه المباهج والنعم، فإذا زادت طموحاتهم فإنها لا تتجاوز نعم الجنة، أما النظر إلى وجهه الكريم، أما ذاته سبحانه وتعالى، فقليل هم الذين يفكرون بها.

---

(١) انظر صفحة ٤٠ من البحث

وحتى إذا سلَّمنا بضرورة علاقة الحب بين الإنسان وربه ومنعمه، فإن تلك العلاقة تنشأ بمجرد الإيمان بالله سبحانه وتعالى، ويعتبر من ضرورات الإيمان كما تقتضي منطق الاشياء وطبيعة الأمور، لتأتي كثمرة من ثمراته، ونتيجة من نتائجه، شأنه شأن الخضوع والطاعة، فإن من عرف المنعم عليه بأعظم النعم بل بالنعم كلها، أصغرها وأعظمها، لا بد أن يعترف بحق طاعته عليه، والائتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه.

وبعبارة أخرى فإن مجرد تصور (الله) سبحانه وتعالى، بكل صفاته الكمالية قد يؤدى وليس بالضرورة إلى أمرين:

- محبة الله سبحانه وتعالى، بل منتهى محبته ومحبة رسوله.
- طاعته والخضوع لأوامره ونواهيه.

وبذلك نعرف أننا لا ننكر إمكان قيام المحبة بين الإنسان والخالق سبحانه وتعالى، لأن ذلك واقع ومأمور به، والأمر أكبر دليل الإمكان، ولا مبرر لتأويل الآيات القرآنية التي دعت إلى تأويل حب الله بالطاعة أو الاتباع.
وإنما ننكر أن يكون الحب شرطاً في العبادة لا تتم إلا به.

وهكذا نعرف أن الحب ليس شرطاً في تحقيق العبادة لا بمعناها العام المطلق، ولا بمعنى العبادة الخاص المأمور بها في الشرع. وإنما هو شرط لكمالها فقط، كما أوضحنا ذلك سابقاً

وبالتالي فإن تعريف العبادة على أساس أنها منتهى الخضوع مع منتهى الحب ليس تعريفاً جامعاً؛ إذ لا يدخل فيه الخضوع عن خوف.

العبادة والألوهية:

لعلَّنا لا نجانب الصواب كثيراً إذا ما اخترنا ـ من الآراء التي استعرضناها وناقشناها رأي من يقول: إن العبادة هي الخضوع لله سبحانه وتعالى، بكل ما تعنيه هذه الكلمة: من طاعة أوامره، والانتهاء عن نواهيه.

وعندئذٍ يشمل التعريف الآراء الأخرى أيضا، إذ لا بد أن يكون الخضوع لِلّه مصحوباً بالتعظيم والاعتراف بسلطة لا حد لها..

إلّا أننا ـ إذا فعلنا ذلك ـ تظل المشكلة، للأسباب نفسها التي تحفظها لأجلها على هذا الرأي في حينه، قائمة؛ إذا أن المعنى لا يشمل ـ عند ذاك جميع أنواع العبادة والخضوع ـ ما كان منها لله تعالى وأمر به، وما كان لغيره سبحانه، وعده الشرع شركاً لا يغتفر، وذلك بالإضافة إلى الملاحظات الأخرى التي أشرنا إليها في موضعها.

ولهذا نلاحظ أن قسماً كبيراً من صعوبة الموضوع يرجع ـ في النهاية ـ إلى معرفة وتحديد ما نهى الله عنه من العبادة، وجعل القيام بها لغير الله شركاً لا يغتفر، هل هي مجرد خضوع وطاعة، مهما كانت طبيعة هذا الخضوع وهذه الطاعة، وأيا ماكان هذا الغير، أم أنها خضوع خاص وطاعة خاصة لمطاع من نوع خاص؟

فإذا ما ذلّلنا هذه الصعوبة اقتربنا من الوصول إلى معنى دقيق للعبادة. وأعتقد أن أفضل السبل للوصول إلى هذه الغاية إلقاء نظرة سريعة على ما كان سائداً في الأقوام والأمم السابقة قبل الإسلام ـ بما فيهم العرب طبعاً ـ من عبادة غير الله، هذا الوضع الذي تناوله القرآن الكريم والسنة النبوية بالتفصيل أحياناً، وبالاجمال أحياناً أخرى، وهو الوضع الذي جاءت الكتب السماوية والرسّالات الإلهية جميعاً ـ بما فيها الإسلام ـ لتصحيحها، بل القضاء عليها، والدعوة إلى عبادة الله وحده ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾(١).

وإذا كان الله تعالى خلق الإنسان على فطرة التوحيد، وأمر آدم عليه السلام بتبليغه لبنيه، فماذا حدث أن اتجه الناس إلى عبادة غيره تعالى؟

يقول ابن عباس رضي الله عنه: إن الحالة استمرت عدة قرون على التوحيد وعبادة الله وحده، حتى مات رجال صالحون من قوم نوح، وهم: ودٌّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، فأوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت(٢).

هذا أول انحراف حدث للإنسان عن طريق التوحيد الحق إلى الشرك، ويزيد

---

(١) سورة الانبياء آية ٢٥

(٢) انظر في هذا المعنى صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري جـ٨ ص٥١١ ـ ٥١٢

الكلبي ذلك إيضاحاً فيقول⁽¹⁾: «هؤلاء قوم صالحون، فماتوا في شهر، فجزع عليهم أقاربهم، وقال لهم رجل، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم؟ قالوا: نعم، فنحت لهم خمسة أصنام ونصبها لهم»

فكان الرجل يأتي أباه وابن عمه فيعظِّمه، حتى ذهب القرن الأول، ثم جاء القرن الآخر وعظَّموهم أشد من الأول، ثم جاء القرن الثالث، فقالوا: ما عظَّم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم فعبدوهم . . .

حتى بعث الله نوحاً ليدعوهم إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام، وقد ورد ذكر هذه الأسماء (الأصنام) في القرآن الكريم على لسان نوح عندما دعاهم إلى عبادة الله وحده، فتولوا وازدادوا كفراً وعصياناً.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا﴾⁽²⁾

ويدل ما ذكرناه آنفاً: على أن الشرك لم يطرأ فجأة على الإنسان، وأنى لإنسان أو مجتمع يعبد الله وحده أن يتحول فجأة إلى عبادة غيره من الآلهة الباطلة؟ وإنما دبَّ في المجتمع كدبيب النمل، وتدرَّج الشيطان بالناس تدرجاً، حتى طلب إليهم اتخاذ الأصنام لمجرد أنها تذكرهم بقوم صالحين، فلما طال الأمد عظَّموها، ثم اعتقدوا فيها القدرة على الشفاعة، واتخذوها آلهة، واتجهوا إلى عبادتها.

ومعنى ذلك أيضاً: أن الناس أول ما انحرفوا لم يتجهوا من عبادة الله وحده إلى عبادة غيره إلا بعد اتخاذ الأصنام آلهة، فارتبطت العبادة الباطلة باتخاذ الآلهة المزيفة الباطلة.

وكما اتخذ قوم نوح آلهةً غير الله واتجهوا إليها بالعبادة، كذلك فعل قوم عاد، وثمود ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ

---

(1) انظر: الكلبي: الاصنام ص٥١ وما بعدها

(2) سورة نوح: ٢٣

بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾(١)

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾(٢)

ومافعله قوم نوح وعاد وثمود فعله قوم إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٣).

أما كيف بدأ الشرك في جزيرة العرب وتحول الناس من دين إسماعيل عليه السلام إلى عبادة الأصنام؟ فهناك روايات كثيرة معظمها ترتبط بزعيم خزاعة عمرو بن لحى، إذ روي: أنه أول من غير دين إسماعيل عليه السلام، فنصب الأوثان، وسيَّب السائبة، ووصل الوصيلة، وبحَّر البحيرة، وحمى الحامية»(٤)

«كما روي: أنه مرض وذهب إلى الشام فاستحم هناك، ثم وجد الناس يعبدون الأصنام، فلما سألهم أجابوا أن فيها تأثير الشفاء، فجاء بهبل وأمر الناس بعبادته، وهكذا انتشرت عبادة الأصنام»(٥)

ثم أصبحت أصنام قوم نوح في العرب، إذ يروى البخاري عن ابن عباس

---

(١) سورة هود آية ٥٣ ـ ٥٥

(٢) سورة الاعراف آية ٧٣

(٣) سورة الانبياء آية ٥٢ ـ ٥٩

(٤) الكلبي: الاصنام ص٨ وحديث الرسول ﷺ أنه أول من غير دين اسماعيل.

(٥) انظر صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري جـ٨ ص٥١٢

رضي الله عنهما «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح، في العرب بعد، أما: ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سُواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير.

حتى جاء الإسلام فنهاهم عن عبادة الأصنام ودعاهم إلى عبادة الله وحده.

من كل ذلك نعرف أن هذه الأقوام كلها كانت تعبد غير الله تعالى، وأن هذا الغير لم يكن أشخاصاً عاديين، بل آلهة.

وبعبارة أخرى فإنهم خضعوا للأصنام معتقدين أنها آلهة، فكان خضوعهم هذا عبادة.

فجاء الإسلام ينفي عنهم صفة الالوهية مما يقتضي بالضرورة رفض الخضوع والعبادة لهذه الالهة المزيفة الباطلة.

وإذا أردنا أن نلخص ما كان سائداً من الفساد في جميع تلك الأقوام من ناحية العقيدة التي دعت الشرائع السماوية كلُّها إلى القضاء عليها قلنا: إنهم اتخذوا آلهة دون الله سبحانه وتعالى. واتجهوا إلى عبادة تلك الآلهة.

وهكذا نلاحظ في القرآن الكريم، وكتب السنة، وهي تقص لنا أحوال تلك الأمم العلاقة الوثيقة جداً بين: الألوهية من جهة، والعبادة من جهة أخرى، حتى اقترنت الكلمتان اقتراناً لا تكاد تنفك إحداهما عن الأخرى، فطالما كان هناك آلهة كانت هناك عبادة لها، ويركز القرآن الكريم على نفي الألوهية عن غير الله لتنتفي بذلك عبادة غير الله.

الآن وقد عرفنا الوضع الفاسد السائد في الأقوام السابقة، وأعتقد أننا قد اقتربنا شيئاً ما إلى معرفة معنى العبادة، فلنتخذ خطوة أخرى، ولنعرف معنى الألوهية، تلك الكلمة التي اقترنت ـ غالباً ـ بالعبادة.

كلمة الإله في اللغة:

كلمة الإله اختلف فيها العلماء. فقال البعض كما يقول صاحب لسان

العرب(١) «إنها من أله تأله، إذا تحير» لأن العقول تأله في عظمته، وأله يأله ألها أي: تحير(٢). وقيل: «هو مأخوذ من أله يأله إلى كذا، أي: لجأ اليه؛ لأنه سبحانه المفزع الذي يلجأ إليه في كل أمر(٣)

وقال ابن سيده(٤): والإلاهة والألوهة والألوهية: العبادة، وقد قرىء: «ويذرك وآلهتك»(٥) وقرأ ابن عباس ويذرك وإلهتك، بكسر الهمزة أي وعبادتك . . لأن فرعون كان يُعبد ولا يَعبد، فهو على هذا ذو الاهة لا ذو آلهة(٦)»

ويذكر ابن كثير(٧) حوالي عشرة أوجه من مصادر مختلفة في هذا المعنى، منها ما ذكرناها. وأهم ما يذكره:

١ ـ أن الإله من وله إذا تحير، وله ذهاب العقل، ورجل إله وامرأة ولهى ومولوهة فأبدلت الواو، همزة

٢ ـ إنها مشتقة من أله الرجل يأله، إذا فزع من أمر نزل به، فآلهه أي أجاره

٣ ـ إنها مشتقة من الارتفاع، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع: لاها، وكانوا يقولون: إذا طلعت الشمس: لاهت

٤ ـ ومما يذكره أيضاً: أن أله يأله الإهة تأتي بمعنى عبد وتعبَّد، ويذكر ما ذكره لسان العرب من قراءة ابن عباس لقوله تعالى ويذرك وآلهتك، أي: عبادتك وإله الرجل: إذا تعبد. وتأله: إذا تنسك.

ومما سبق يتأكد لنا العلاقة بين العبادة والألوهية في اللغة، حتى تأتي كلمة أله بمعنى عبد، حتى يقول أبو الهيثم(٨): «فالله أصله إلاه قال الله عز وجل: «ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، إذاً لذهب كل إله بما خلق». قال: ولا يكون إلهاً حتى يكون معبوداً.

---

(١) لسان العرب جـ١ ص٨٧ انظر مادة أله

(٢) المصدر السابق جـ١ ص٨٨ انظر مادة أله

(٣) المصدر السابق جـ١ ص ٨٨ انظر مادة أله

(٤) المصدر السابق جـ١ ص٨٨ انظر مادة أله

(٥) يقصد قول قوم فرعون له كما يذكر ذلك القرآن الكريم.

(٦) المصدر السابق بالاختصار

(٧) انظر تفسير ابن كثير جـ١ ص٢٠ ـ ٢١ بالاختصار والتصرف.

(٨) لسان العرب جـ١ ص٨٨ مادة أله

«وأصل إله ولاه فقلبت الواو همزة، كما قالوا للوشاح: إشاح، وللوجاج ـ وهو الستر ـ إجاج، ومعنى ولاه: أن الخلق يولهون إليه في حوائجهم، ويضرعون إليه فيما يصيبهم، ويفزعون إليه في كل ما ينوبهم، كما يوله كل طفل إلى أمه»

وإذا ما تعمقنا في هذه المعاني نجد أن الألوهية تعني في جوهرها السيطرة والسلطة، وبعبارة أدق لا معنى لإله لا يملك السلطة والسيطرة، ولا يعقل أن يعتقد الإنسان في شيء ما أنه إله إلا اذا اعتقد فيه أنه يملك السلطة.

ولا يمكن أن يقول الإنسان لشيء ما ـ مهما كان هذا الشيء ـ إنه إلهه إلا إذا كانت سلطته ذات صلة وثيقة بمصالحه، أي يكون إلهه قادراً على إيصال الضرر والنفع له، بعبارة أخرى يملك الضرر والنفع.

ثم إذا كان هذا الإله يملك الضرر والنفع له حسب الأسباب المادية المعروفة أي باتخاذ أسباب معروفة كما يفعل الحكام والسلاطين والقادة . . . الخ لا يمكن أن يكون إلهاً عنده

إذن لا بد أن يملك الضرر والنفع فوق الأسباب الكونية ومسبباتها، وكان العرب ـ بل كل الأقوام السابقة التي جاء الرسل والأنبياء لهدايتهم ـ يعتقدون في أصنامهم هذه الصفات متخذين إياها آلهة.

وعلى هذا نستطيع أن نقول: إن جوهر الألوهية: هو من يملك الضرر والنفع لذاته، فوق الأسباب والمسببات الكونية.
والآن نستطيع أن نقول:

١ ـ إن الانحراف عن الدين الحق إلى الشرك بدأ، باتخاذ غير الله آلهة تضر وتنفع.
٢ ـ وإن هذه الآلهة أصنام، أي أنها تضر وتنفع لا حسب الأسباب والمسببات السائدة في الكون، وإنما تضر وتنفع فوق تلك الأسباب والمسببات.
٣ ـ بدأ الناس بالتقرب والطاعة والخضوع لهذه الآلهة (عبادتها)
٤ ـ فلما جاء الإسلام رفع شعار لا إله إلا الله، أي: نفى الألوهية عن كل ما سوى الله وأنها لا تستطيع أن تضر وتنفع، وبالتالي فإن التقرب إليها بالطاعة عبث وظلم.

ومن هنا نستطيع أن نعرف عناصر العبادة فنقول:

١ ـ الطاعة والخضوع
٢ ـ وأن هذه الطاعة والخضوع ليس لأشياء عادية، وإنما للآلهة
٣ ـ وأنها كانت بهدف التقرب إليها
٤ ـ باعتبار أنها تضر وتنفع
٥ ـ وأن هذا الضرر والنفع يتم فوق الأسباب الكونية

فنستطيع أن نقول:

إن العبادة هي الطاعة والخضوع لله، أو آلهة اعتقاداً بأنها تضر وتنفع فوق الأسباب والمسببات السائدة في الكون.

وإذا كانت كلمة الإله أو تصور (الألوهية) يحمل في طياته الضرر والنفع فإنه لا يمكن أن يتخذ إنسان شيئاً إلهاً كما قلنا إلا إذا اعتقد فيه الضرر والنفع.

كما لا يمكن أن يتخذه إلهاً إذا كان يضره وينفعه باتخاذ الأسباب المادية المعروفة للناس، وإنما يملك الضرر والنفع فوق وخارج تلك الأسباب.

نقول: إذا كان تصور الألوهية يحمل في طياته كل هذه المعاني نستطيع أن نقرر في معنى العبادة الآتي:

العبادة: هي الخضوع لله أو الآلهة

فمن خضع لشخص أو شيء معتقدا فيه أنه يملك الضرر والنفع فوق الأسباب المادية .. فقد عبده، أما من خضع دون هذا الاعتقاد، أو من لم يخضع أصلاً وإنما أطاع غير الله لا يسمى عابداً له، بل يكون عاصياً إذا ما أطاعه في معصية الله، أو ترك شرع الله واتبع شرع غيره.

وإذا كانت العبادة هي الخضوع للآلهة أو لله تعالى، وإذا كنا عرفنا معنى الإله، وعرفنا معنى الخضوع من دراسة المعنى اللغوي لكلمة العبادة حيث قلنا: إنه الذّل .. والدليل عليه عدم وجود الاستنكاف والاستكبار في قلب العابد إزاء المعبود(١).

فإن الخضوع صفة نفسية تقوم بالعابد أو الخاضع، لا بد أن تنعكس على الجوارح تتمثل في الأعمال كأداء النسك والشعائر .. الخ

---

(١) انظر صفحة ٦ من البحث

فمتى نستطيع أن نقول لرجل: خاضع أو عابد إذا انعكست هذه الصفة النفسية القائمة به على جوارحه وتمثلت في أعماله

ولذلك نستطيع أن نعرف العبادة بتعريف آخر من حيث شمولها على الموضوعات، فنقول: العبادة هي أعمال لا يقوم بها الإنسان إلا لله، أو الآلهة عادةً، مثل الصلاة أو تقديم القرابين . . الخ أو نقول: إنها تقديم الشعائر، والنذر، والقرابين، لله تعالى، أو الآلهة.

وهذا هو معنى عبادة أهل الكتاب لرجال دينهم، واتخاذهم إياهم أرباباً، فقد ذكر فيه عدة أقوال:

منها ما يذكره القرطبي(١) «أنهم جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب، حيث أطاعوهم في كل شيء. ومنه قوله تعالى: قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً: أي كالنار».

وما يقوله الرازي(٢): «وحاصل الكلام أن تلك الربوبية يحتمل أن يكون المراد منها: أنهم أطاعوهم فيما كانوا مخالفين فيه لحكم الله ـ وأن يكون المراد منها أنهم قبلوا منهم أنواع الكفر، فكفروا بالله ـ فصار ذلك جاريا مجرى أنهم اتخذوهم أربابا من دون الله ـ ويحتمل أنهم أثبتوا في حقهم الحلول والاتحاد . .» كما أن عبادتهم لهم لم تكن مجرد الخضوع والطاعة دائماً، وإنما خضوع وطاعة مع الاعتقاد بتعطيمهم.

إلا أننا نستطيع أن نقول في ضوء ماذكرنا في تعريف العبادة: إن أهل الكتاب أقروا للأحبار والرهبان بحق التحريم والتحليل في جميع الأمور: الدنيوية، والدينية، المعاملات، والشعائر على السواء، وذلك أمرٌ لا يملكه ولا يقوم به الإنسان عادةً إلا للرب سبحانه وتعالى، الذي تجاهلوا ما حرَّمه وما أحلَّه تعالى، اتباعاً وتعظيماً لما حرَّمه وأحلَّه الأحبار والرهبان في كل شئون الدِّين والدُّنيا. مع الاعتقاد بعصمتهم.

يقول تفسير المنار(٣) «. . . وصور العبادة تختلف عند الأمم اختلافا عظيماً، وأعلاها عند المسلمين الأركان الخمسة والدعاء. .

---

(١) تفسير: الجامع لاحكام القرآن ٨/١٢٠

(٢) مفاتيح الغيب بالتصرف والاختصار في تفسير قوله تعالى: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم.

(٣) تفسير المنار ١/١٨٩

ولها عند أهل الكتاب صور أخرى، والمؤولون يخصون هذه الصور بالله تعالى، وإذا ابتدعوا صورة فيها معنى العبادة يسمونها باسم آخر، يستحلونها بل يستحبونها به.

ولكنهم لا يخرجون بالتسمية أو التأويل عن حيز من يتخذ من دون الله أنداداً كما ذكر الله عنهم في قوله (٩ : ٣٠) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله. .

ولم يكن منهم سوى: التوسل بهم والأخذ في الدين بقولهم تقليداً لهم بدون فهم لما جاء على لسان الوحي. .

والظاهر أن النصارى لم يكتفوا بالأخذ بقول رجال دينهم تقليدا بدون فهم، بل أحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحل الله، تقليدا وتعظيما لهم في المعاملات والشعائر معا، كما ذكرنا.

وكما يقول تفسير المنار(١) أيضاً: وقد ثبت في الآيات المحكمة القطعية الدلالة أن الله هو شارع الدين، وأن رسوله ﷺ هو المبلغ له عنه، (إن عليك إلا البلاغ - ما على الرسول إلا البلاغ - فإنما عليك البلاغ)
فهذه أنواع الحصر التي هي أقوى الدلالات.

وأركان الدين التي لا تثبت إلا بنص كتاب الله تعالى أو بيان رسوله الله ﷺ عليه وسلم لمراده منه ثلاث(١): العقائد، و(٢) العبادات المطلقة، والمقيدة بالزمان والمكان، أو الصفة، أو العدد. ككلمات الأذان والإقامة المعدودة، المشروط فيها رفع الصوت و(٣) التحريم الديني. .

وعلى هذا فإن اتخاذ أهل الكتاب رجال دينهم أرباباً وعبادتهم لهم «كان عاماً عند الفريقين، فإن اليهود لم يقتصروا في دينهم على أحكام التوراة، بل لم يلتزموها، بل أضافوا إليها من الشرائع اللسانية عن رؤسائهم ما كان خاصاً ببعض الأحوال، من قبل أن يدونوه في المشنة والتلمود، ثم دونوه فكان هو الشرع العام، وعليه العمل عندهم.

---

(١) ١٠/٣٧٠ - ٣٧١

(٢) المصدر السابق صفحة ٣٦٤ - ٣٦٥

(٣) انظر ص١٧ من البحث

وأما النَّصارى فقد نسخ رؤساؤهم جميع أحكام التوراة الدينية والدنيوية على إقرار المسيح لها، واستبدلوا بها شرائع كثيرة: في العقائد، والعبادات، والمعاملات جميعاً. وزادوا على ذلك انتحالهم حق مغفرة الذنوب لمن شاءوا، وحرمان من شاءوا من رحمة الله وملكوته.

وهذا حق الله وحده ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ أي لا أحد . .(٢) من كل ذلك نعرف أن أهل الكتاب لم يخضعوا فقط للأحبار والرهبان، وإنما أقروا لهم بما لا يقر به إلا للرَّب سبحانه وتعالى عادةً، وهو إعطاؤهم حق التشريع الديني في كل الأمور، حتى الشعائر نفسها.

وبهذا، فإنهم كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم بالمعنى الموضوعي للعبادة الذي ذكرناه منذ قليل، فأصبحوا كمن يصلون لهم، أو يقدمون لهم القرابين، لأن كل ذلك لايقام إلا لله تعالى.

ولهذا عندما قال عدي: قلت يارسول الله، أما إنهم لم يكونوا يصلون لهم. قال: صدقت، ولكن كانوا يحلون لهم ماحرّم الله، فيستحلّونه، ويحرّمون ما أحل الله فيحرِّمونه، وقال: فتلك عبادتهم لهم.

وعلى هذا كان كفرهم من جهتين.
من جهة: اعتقادهم بتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله، كما ذكرنا سابقا(١).

ومن جهة: إقرارهم بأنهم يستحقون وضع التشريع في جميع الأمور الدينية والدنيوية على السواء.

وهكذا نجد أنفسنا نميل إلى ترجيح رأي من يربط العبادة بالألوهية ولكن ليس بمعنى الخضوع لله سبحانه وتعالى فقط؛ فإن ذلك لا يشمل عبادة المشركين لآلهتهم، بل الخضوع لله أو الآلهة بالمعنى الذي ذكرناه.

إلا أن ذلك لا ينفي ورود العبادة بالمعاني الأخرى في القرآن الكريم. فقد مرّ بنا: أن العبادة تأتي في اللغة بخمسة معانٍ(١)، وقد استعملت في القرآن الكريم في

---

(١) راجع معنى العبادة في اللغة ص٤ من البحث

ثلاثة معانٍ غالباً(١)، هي معنى: المملوك، ومعنى الطاعة مع الخضوع، ومعنى التأله والتنسك، يحدد كل معنى من هذه المعاني حسب القرينة، فإذا كانت العبادة موجهة إلى الملائكة مثلا: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾(٢) كان معنى العبادة التأله.

ولكن إذا كانت موجهة إلى اهوى أو الشيطان ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾(٣) فتعني الخضوع والطاعة

أما إذا لم تكن هناك قرينة، فإن العبادة تعني في القرآن الكريم جميع هذه المعاني مجتمعةً مثل قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾(٤).

وتتخذ العبادة المعنى الشامل حتى تشمل الحياة كلها عندما ننوي في كل ما نقوم به أو نقوله ابتغاء مرضاة الله، والحصول على جنته.

ويقسم الفقه ما جاء به الإسلام إلى عقيدة وشريعة، ثم يقسم الشريعة إلى عبادات ومعاملات، فتكون العبادات بهذا المعنى إزاء المعاملات، ويعني بها تلك الشعائر التي يقوم بها الإنسان لله سبحانه وتعالى، وهي العبادات المحضة.

إلا أن دعوة القرآن الكريم المتكررة التي تحتل مساحات شاسعة في سوره إلى عبادة الله، تعني:

أ ـ التوحيد، إذ أن العبادة كما قلنا: هي خضوع مع الاعتقاد بأن المعبود إله، وطالما ليست هناك آلهة تضر وتنفع الإنسان فلا عبادة إلا لله سبحانه وتعالى وحده.

---

(١) راجع معنى العبادة في اللغة ص٤ من البحث

(٢) سورة سبأ آية ٤٠

(٣) سورة يس آية ٦٠

(٤) سورة النساء آية ١٧٢

ب ـ وبهذا فإن هذه الدعوة لا تعني الدعوة إلى إقامة الشعائر كالصلاة . . الخ فقط وبعبارة أخرى: إنها ليست الدعوة إلى العبادة بمعناها الفقهي المعروف، وإنما هي دعوة إلى الخضوع، خضوع الإنسان، وكل مظاهر الحياة لله رب العالمين.

وهذا يعني وحدة الهدف، ووحدة الوجهة والتوجه عند المسلم، كما يعني توحيد الجهود والقدرات في كل الأحوال، وتوجيهها نحو الخالق سبحانه وتعالى، مما يمنع تشتت الذهن والجهد والفكر في جهات مختلفة شتى.

وإذا كانت إقامة الشعائر هي التي أمر بها الشارع في الكتاب والسنة وجعل توجيهها نحو غير الله شركاً لا يغتفر، فإنه ـ أي الشارع ـ طالب كذلك بأن تكون الحياة كلها خاضعة لله تعالى، وجعل الخضوع لغيره اعتقاداً في ضره ونفعه مستقلاً عن الله عبادة لهذا الغير.

وعلى هذا فإن على الدعاة والمربين والموجهين إزالة هذا اللبس الذي أوجده التقسيم الفقهي ـ الذي تم لمجرد التبويب وضرورات البحث العلمي ـ عن أذهان الشباب وعقولهم، كما يجب عليهم التفرقة بين العبادة التي يعد توجيهها إلى غير الله شركاً لا يغفر الله لصاحبه أبداً، وطاعة الغير أو حتى الخضوع له الذي يعتبر فسقاً ومعصيةً نهى الله عنها، ولكن لم يعده من الشرك.

الخلاصة والنتائج

١ ـ تأتي كلمة العبادة في اللغة بعدة معانٍ، أبرزها معنى الخضوع ومعنى التأله.

٢ ـ يتفق المفسرون جميعا على أن كلمة الخضوع عنصر أساسي أصيل في معنى العبادة في المصطلح الشرعي. ثم اختلفوا بعد ذلك.

٣ ـ فمنهم من اكتفى بهذا المعنى اللغوي، فقالوا: إن العبادة هي الخضوع، أو الطاعة مع الخضوع في الشرع.
وبدراسة هذا الموضوع يتضح أنه ليس جامعاً في تحديد معنى العبادة التي جعل الشارع توجيهها لغير الله شركاً لا يغتفر.

٤ ـ ومعظم المفسرين لم يجدوا كلمة الخضوع أو الطاعة مع الخضوع كافيةً في معنى العبادة، ثم انقسموا إلى عدة أقسام:

أ ـ إن العبادة ليست إلا الخضوع لله تعالى فقط، حتى لا يسمى الخضوع لغير الله عبادة، وبدراسة هذا الموضوع اتضح أن هذا المعنى لا يشمل ما نهى الله عنه من عبادة غير الله، فيعتبر المعنى غير جامع.

ب ـ إن مجرد الخضوع لا يعتبر عبادة إلا إذا كان مصحوباً بالتعظيم، حتى إذا ماكان الخضوع عن غير التعظيم لايسمى عبادة

ج ـ إن الخضوع والتعظيم لا يكفيان في تحديد معنى العبادة، وإنما لا بد أن يكون تعظيماً لا يدرك الخاضع كنهه.

وأضاف البعض على ذلك أن يعتقد الخاضع في المعبود سلطة لا حد لها

د ـ أن الخضوع وحده لا يسمى عبادة، وإنما لكي يكون عبادة لا بد أن يصاحبه الحب، فالعبادة هي منتهى الحب، ومنتهى الخضوع، ولا يكفي أحدهما في تحقيق معنى العبادة

وبالنظر في هذا التعريف اتضح أنه غير جامع لكل أفراد العبادة.

٥ ـ وأخيرا يرجح أن العبادة تأتي غالباً في الشرع بمعنيين؛

أ ـ معنى الخضوع: فالقرآن عندما يستخدم كلمة العبادة بمعنى الخضوع فإنما يقصد توجيه الحياة والأنشطة كلها لله تعالى، فمن خضع لغير الله كان فاسقاً عاصياً، ولكنه ليس مشركاً شركاً لا يغفره الله له.

ب ـ معنى الخضوع مع التأله: أن يكون الخضوع عن اعتقاد بأن المعبود يملك السلطة والسيطرة .. الخ فوق الأسباب المادية، فمن خضع لغير الله بهذا المعنى كان مشركاً.

٦ ـ والخضوع عملية نفسية تنعكس على الجوارح في شكل الطاعات والقربات والشعائر، فمن توجه بالطاعات والقربات إلى غير الله دون الاعتقادات التي ذكرناها لم يكن مشركاً. أما من توجه بالشعائر إلى غير الله يعد مشركا حتى لو كان ذلك دون الاعتقادات الآنفة الذكر، وكذلك إذا أقر لغير الله (بشكل مستقل) بحق التحريم والتحليل في أمور الدين.

ذلك لأنها لا توجه عادة ولا يعقل توجيهها إلا عن ذلك الاعتقاد.

قائمة المراجع

القرآن الكريم

ابن تيمية (تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام):	العبودية: المكتب الاسلامي: ١٣٩٩هـ دقائق التفسير: مؤسسة علوم القرآن ١٩٨٤م الرسالة التدمرية: المكتب الإسلامي ١٩٨٠ الإيمان: المكتب الإسلامي: ١٣٩٩هـ التحفة العراقية في الاعمال القلبية: دار القلم ضمن رسالة: امراض القلوب وشفائها ١٩٨٦
ابن فارس (أبو الحسين أحمد)	معجم مقاييس اللغة تحقيق: عبدالسلام محمد هارون ـ دار الفكر ١٩٧٩
ابن القيم (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر قيم الجوزية):	روضة المحبين: مدارج السالكين: دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٧٢
ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل)	تفسير القرآن العظيم: دار المعرفة ـ بيروت ١٩٨٠
ابن منظور (محمد بن مكرَّم)	لسان العرب المحيط ـ بيروت، دار لسان العرب.
أبو البقاء (الكفوى)	الكليات: تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق ١٩٨٢.

أثير الدين (أبو عبدالله محمد بن يوسف):	التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط مكتبة مطابع النصر الحديثة ـ الرياض (بدون تاريخ)
الالوسي (ابو الفضل شهاب الدين السيد محمود)	تفسير: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٨
الاصفهاني (ابو القاسم الحسين بن محمد الراغب الاصفهاني)	المفردات في غريب القرآن، مصطفى الباب الحلبي (بدون)
البغوي (ابو محمد الحسين بن مسعود الفراء)	تفسير معالم التنزيل: مصطفى البابي الحلبي ـ ١٩٥٥
البيضاوي (ناصر الدين ابو الخير عبدالله بن عمر)	تفسير: انوار التنزيل وأسرار التأويل مصطفى البابي الحلبي ـ ١٩٦٨
البيهقي (ابو بكر احمد بن الحسين)	كتاب الأسماء والصفات دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨٤
الجرجاني (السيد الشريف الجرجاني)	شرح المواقف، مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٠٧
الخازن (علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي)	تفسير: لباب التأويل في معاني التنزيل مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٥
دراز (د. محمد عبدالله دراز)	الدين: دار القلم ١٩٧٠

رشيد رضا (السيد محمد رشيد رضا)	تفسير المنار: تفسير القرآن الحكيم دار المعرفة ـ بيروت
الرّازي (محمد فخر الدين الرازي):	ـ التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ـ دار الفكر: ١٩٨١ ـ لوامع البينات شرح اسماء الله تعالى والصفات مكتبة الكليات الازهرية ـ ١٩٧٦
الزجاجي (ابو القاسم عبدالرحمن بن اسحاق)	اشتقاق أسماء الله: تحقيق د. عبدالحسن المبارك مؤسسة الرسالة: ١٩٨٦
الزمخشري (ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي)	تفسير: الكشاف: دار المعرفة ـ بيروت (بدون تاريخ)
الشوكاني (محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليماني):	تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية. علم التفسير: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٤هـ
شلتوت (محمود شلتوت)	تفسير القرآن الكريم، دار الشروق ـ ١٩٧٩
الشهرستاني (ابو الفتح محمد بن عبدالكريم)	الملل والنحل ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ١٩٨٤
الطبري (الامام أبو جعفر محمد بن جرير)	تفسير ابن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن ـ دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت

عبدالجبار (القاضي أو الحسن)	المغنى في أبواب التوحيد والعدل، المؤسسة المصرية العامة للتأليف. تحقيق الاب ج ش فتواتي مراجعة، د. ابراهيم مدكور
الغزالي (ابو حامد محمد بن محمد بن محمد)	الاقتصاد في الاعتقاد: مكتبة الجندي ١٩٧٢ احياء علوم الدين: محمد علي صبيح - القاهرة
الكلبي (ابو المنذر هشام بن محمد بن السائب)	الاصنام: تحقيق الاستاذ احمد زكي الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٢٤
الماوردي (ابو الحسن علي بن حبيب الماوردي البصري)	كتاب النكت والعيون (تفسير الماوردي) وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية - الكويت - ١٩٨٢
المودودي (ابو الاعلى):	المصطلحات الاربعة: دار القلم - الكويت ١٩٧٧ مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة: دار القلم - الكويت ١٩٧٧ تفهيم القرآن - تعريب: أحمد ادريس - دار القلم: ١٩٧٨
المراغي (احمد مصطفى المراغي)	تفسير المراغي: دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٣٦٥هـ (تاريخ المقدمة)

محمد عبده:	الإسلام والنصرانية: محمد علي صبيح ١٩٥٤
نيسابوري (نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي)	تفسير: غرائب القرآن ورغائب الفرقان دار الفكر ـ ١٩٧٨
يوسف القرضاوي (دكتور):	العبادة في الإسلام، دار الارشاد، بيروت ١٩٧١